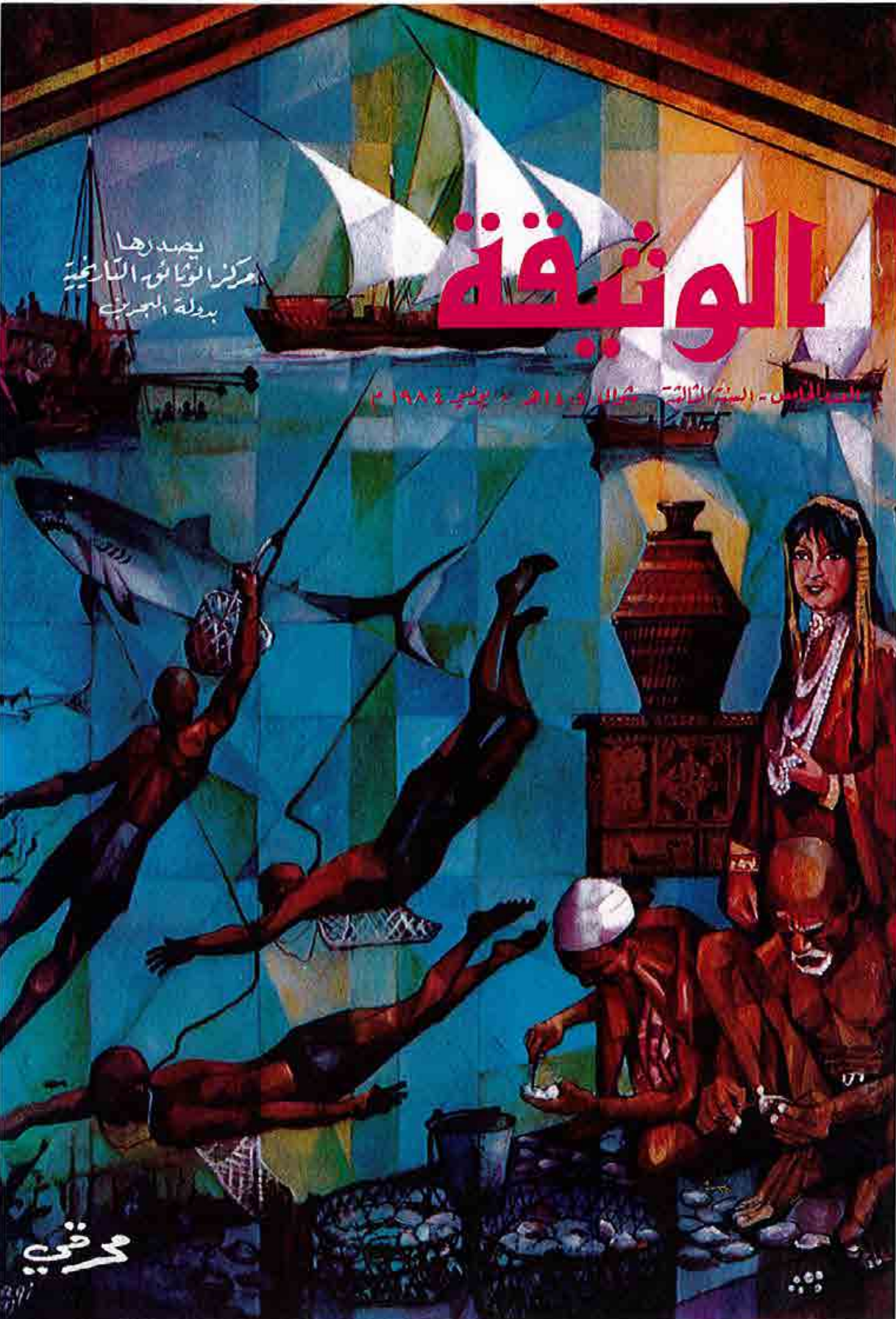
الوثيقة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد الخامس - السنة الثالثة - شوال ١٤٠٤هـ - يوليو ١٩٨٤م
محرقي

من قضايا التاريخ في البحرين

بقلم : دكتور علي حبيبة

هذه محاولة لتفسير بعض الظواهر الهامة فى تاريخ البحرين خلال العصور الاسلامية المختلفة . وهى :

١ ـ الاستجابة السريعة لدعوة الاسلام ، ودوافعها
٢ ـ ضعف حركة الارتداد عن الدين وأسبابه
٣ ـ محاولة الحرب فى بلاد الفرس ، ونتائجها
٤ ـ موقف البحرين فى عهد الخلفاء الراشدين
٥ ـ ثورة الخوارج وأهميتها
٦ ـ القرامطة ، وميولهم الاجتماعية

ونقصد بالبحرين ما كان يفهمه العرب فى تلك العهود وهى : الاقليم الممتد على ساحل الخليج العربى بين البصرة وعمان ، وهى بهذا التعريف تشمل ما يعرف فى الوقت الحاضر بالكويت والأحساء والبحرين وقطر وتتصل غربا باليمامة وشمالا بالبصرة وجنوبا بعمان .

وأما دولة البحرين المعاصرة فاراضيها جزء من ذلك الكل ، واذا كانت وحدها تحظى الآن بهذه التسمية التاريخية ، فقد حدث هذا بعد ان تحددت معالم هذه المنطقة فى عصور متأخرة ، وكان

ذلك قبل قيام دولة البحرين الحديثة بقيادة آل خليفة سنة ١٧٨٣ م.

***

وليس كاتب هذه الصفحات بعد ذلك الا واحدا ممن شغلهم التاريخ ، وعاشوا معه فترات طويلة ، فهو يرجو ان يكون ما يعرضه مفيدا أو مقبولا عند الراغبين فى المعرفة ، والله المستعان .

الاستجابة السريعة لدعوة الاسلام ودوافعها :

لا نعرف الكثير عن تطور الاستجابة لدعوة الاسلام فى مناطق البحرين المختلفة ، وكان ادراك المراحل المتصلة بقبول هذا الدين فى هذه المواطن يكشف عما يساعد على فهم الأوضاع الدينية بها .

وكذلك لا نعرف الكثير عن الأحوال الاجتماعية التى عاشها الناس فى هذه البلاد العربية عند ظهور دعوة الاسلام ، وكأن العروض الواردة فى المصادر التاريخية عن بلاد العرب الأخرى يمكن ان تشملها بدون مفارقات أو اختلافات .

ولا نعرف من المؤرخين من تتبع الظواهر الدينية والاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها فى أى من المناطق العربية من بدايتها حتى نهايتها فلم يهتم الكثيرون منهم بالخيوط الداخلة فى نسيج الأحداث الكبرى ، وانما انصرف الجميع الى رواية هذه الأحداث ، أو ذكر أحوال من كانوا يؤدون الأدوار الرئيسية بهذه المناطق ، وحصروا جهدهم فى هذا الجانب وحده [١] .

وهكذا سارت الأمور واستقرت الاحوال ، فكان علينا اذن مسئولية البحث عن أسباب بعض الأحداث المروية عن هذه المناطق العربية الهامة ـ والآن تشيع بيننا مفاهيم ثابتة تدور حول قبول التفاعل والتأثير المباشر بين مظاهر الحياة المختلفة ، بمعنى ان الاحداث السائدة فى بيئة ما لا بد ان يؤثر بعضها فى بعض ولا بد ان يتفاعل بعضها مع بعضها الآخر ، فاذا كانت مناطق البحرين قد قبلت الاسلام واذا كانت قد استجابت لدعوته بعد عرضها فكأنها بذلك خالفت الاتجاه العام فى كثير من المجتمعات العربية ومعنى ذلك ان تكون لهذه الظاهرة دوافعها وأسبابها ولا بد ان الحياة فى البحرين كانت تختلف ولو من بعض جوانبها عما كان معروفا فى المناطق العربية المجاورة لها .

ولعل استقرارها النسبى دفعها الى ان تدرك بعض ما لا يعرفه غيرها فلقد عرفت هذه البلاد الحياة الرتيبة وتعودت عليها ، وكان بها رخاء يمنحها فرصة النظر المتأنى فى الأمور من حولها [٢] ، ثم كانت تملك الوسائل الصالحة للاقامة مع الأمن والتفاهم الاجتماعى : تربة صالحة للزراعة ، ومياه صالحة للرى وتجارب طويلة فى استغلال البحر ومحاولات كثيرة مع التجارة الداخلية والخارجية ، مما يعنى ان الأوضاع بهذه المناطق كانت تختلف عن تلك التى كان يمارسها البدو فى الصحراء العربية [٣] ، والتى كان يعرفها كثيرون من العرب فى البلاد العربية الأخرى .

ولقد بدت العلاقات الاجتماعية فى مناطق البحرين سليمة أو أقرب للتماسك والانسجام عما كان معروفا فى مناطق عربية أخرى ، فالحروب القبلية كانت قليلة ، أو أقل منها فى بلاد العرب الصحراوية ،

والتنقل من أجل الرعى كان محدودا أو فى أدنى صوره المعهودة .

ولم تعرف مناطق البحرين الهجرات الجماعية منها أو اليها ـ وقت ظهور الاسلام وبعده ـ لأنها لم تكن من مناطق الاستقطاب المعروفة ، ولم تكن كذلك من مناطق الرفض الدافعة ، وانما كانت مواطن عربية تعيش حياتها فى داخلها ، لا تجذب الآخرين نحوها ، ولا تدفع مواطنيها للبعد عنها ولا ترفض القادمين اليها ، لم تكن تسرع للشر ولم تكن تخشاه اذا فرض عليها ، وتتجه الى مطلع الشمس بتجارتها ولها مع ذلك وسائلها القليلة مع بلاد العرب القريبة منها ، قد تفد اليها قبائل عربية اذا عرفت طريقها للحياة فيها وقليلا ما كان أهلها يردون على هذه الوفادة بمثلها ، وكثيرا ما كانت تأتيها عناصر قادمة من بلاد الهند أو الفرس أو غيرها ، وقد تكثر فيها هذه العناصر حتى تغلب على النسبة المعروفة لمواطنيها ، ولكنها مع ذلك كانت تعيش الحياة العربية بمظاهرها ومعالمها ومقوماتها .

ولقد عرفت هذه المناطق الأديان السائدة فى محيطها ولكنها لم تقف ثابتة مع واحد منها لأنها لم تعرف الجمود والتعصب ، ولا يزال اتساع الأفق ، والتسامح مع الناس من بعض مظاهر الحياة الراقية فى بعض أرجائها حتى اليوم [٤] كانت لها صلات اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها ببلاد العراق الجنوبية عرفت عن طريقها النظم والقيم والمفاهيم المتطورة ، وعرفت مظاهر التحضر ، والعلاقات السوية ، وكان لها ايضا صلات مع جيرانها الفرس ، وعانت من علاقتها بهم فى فترات من الزمن ، وظلت تتحين الأسباب لتتخلص من بعض معاناتها أمام هؤلاء الجيران .

وعندما أدرك الكثيرون فى البحرين الحاجة للتغيير والتطور ـ وكان العالم كله يدرك هذه الحاجة ويترقبها ـ وعندما جاءتهم دعوة الاسلام استجابوا لها وتعرفوا عليها [٥] ، واذا لم تعرف حواجز قوية بين اتباع الأديان الممثلة فى البحرين رغم اختلافها وتباعدها لأن الجميع عاشوا حياة متقاربة فقد كان الكثيرون لا يشعرون بأهمية كبرى لأى منها ، بخلاف الاسلام الذى وضعه دعاته عند مركز الدائرة فى حياة المستجيبين له وجعلوا له دورا فى سلوك الناس ، فبدا وكأنه دين الحياة والأمل والمستقبل ، فشق طريقه بين الجماعات ، ولم يجد أمامه معارضات تعطل تقدمه وتوقف نموه ، وكان الناس قد عرفوا الكثير عن سلوك بعض دعاة الأديان الأخرى ، وبعضهم كان يعمل لحساب عناصر تعيش خارج بلاد العرب ، وبعضهم كان قد انحصر جهده فى الأمور السياسية والاقتصادية وما يقرب فيها ، وكأن الاسلام لم يقابل فى البحرين قوة تعارض انتشاره وتعلن الوقوف أمامه ، لأن كل الأديان فقدت جاذبيتها فى نظر المواطنين بتلك المناطق .

ثم كان الاسلام عند عرضه على الناس فى البحرين قد عرف طريقه الى الانتصار على من عارضوه فى بلاد العرب التى نشأ فيها ، وتلك كانت فرصة انصاره فى الدعوة له فى كل مكان ولعل العالم كله كان فى نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى ، أو كأن أشياء كثيرة كانت فى طريقها للتغيير على أرض العرب وغيرها .

***

وسارت البحرين مع الميول الصاعدة ، وجاءتها رسل الرسول فوجدت من أهلها قبولا واستجابة ، وكان مأمولا ان تجد بها تلك الرسل مثل هذا القبول والاستجابة ، لأن الاسلام كان يتقدم بثبات فى مناطق

أخرى [٦] ، فاتضح ان المستقبل فى جانبه ، وانه أصبح حركة حضارية تحاول انقاذ المنطقة من التبعية والضياع ، وتحاول انقاذ العالم من التخلف والجهالة .

وفى قبول البحرين للاسلام بهذه السرعة وهذا الحسم ما يكشف عن مرونة فى التعامل وما يشير الى تطور فى المفاهيم ، وما يفيد عدم الالتزام بأى دين تعرفه الجماعات ثم تحولت تلك المنطقة الى ولاية اسلامية ، ومنذ عهد الرسول ، وكانت من المصادر الهامة للدخل فى هذا العهد [٧] ، وفى العهد الذى جاء بعده ، وعرف ان مجالات الكسب فى البحرين كانت وافرة ومتاحة للولاة والباحثين عن الثراء والثروة .

ويثير الانتباه ان علاقة الرسول بأهل البحرين كانت متميزة أو نقول انها بدت علاقة حميمة ، وتشير الى ذلك كتبه ولقاءاته ، وثناؤه الجم على سكان البحرين من أهل المشرق فى بعض الروايات الواردة عنه .

فهو يطلب وفدا من البحرين ، ويحدد العدد المرغوب فيه ، ويثنى على هذا الوفد قبل ان يراه ، ويبدو سعيدا به عند اللقاء ، يستضيفه ويقرب سيده ، ويثنى عليه ، ثم يستقبل وفدا آخر سنة ٩ ـ ١٠ هـ مع زعيمه المسيحى ، فيسلم هذا الزعيم أمام الرسول ، ويضمن له الرسول انه مع الحق ويقربه ويعطف عليه .

ثم هو يراسل المواطنين مع حاكمهم ، ويراسل بعض المسئولين الآخرين معهم وتكثر مراسلات الرسول للمنذر بن ساوى حاكم البحرين ، ويمنحه عطفه وتوجيهاته ويشفعه فى قومه ، ويعفو عن المذنبين من مواطنيه ، ويضمن له البقاء فى عمله ما صلحت حاله ، ويوجهه للتعامل مع غير المستجيبين له .

وكان العلاء بن الحضرمي ـ رسول الرسول لحاكم البحرين ـ على نفس المستوى من حرارة اللقاء مع المنذر بن ساوى ، فهو يخاطبه ، وكأنه كان صديقا له أو كأنه على صلة وثيقة به ، فهو فى رأيه عظيم العقل ، فينبغى لمثله ان ينظر فى أمره فلا يكذب من لا يكذب ، ولا يحجب ثقته عن الموثوق به ، ويغريه بأن كل ما جاء به الاسلام من أمانى أهل الفهم ، ورغبات اصحاب الفطنة .

وبعد ذلك يلفت نظره الى عيوب المجوسية ويجد فيها ما يرفضه العرب قبل غيرهم لأنها تبيح نكاح من يستحى من نكاحه ، وتبيح أكل ما تأنفه النفوس المترفعة وكأن المنذر كان مجوسيا فوجد فيه العلاء فرصته أو لعله كان فى طريقه الى المجوسية المرفوضة أو لعل الاتجاه الغالب بالمنطقة كان يميل الى مرضاة انصارها والتغافل عن عيوبها ويرد عليه المنذر بما يناسب حاله ، فيثنى على دينه ويقول ان شيئا ما لا يمنعه من قبوله .

***

لقد عرض الاسلام على الناس فى البحرين فاستجاب له أكثرهم ، أو استجاب له العرب منهم وكان هذا العرض فى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة ، مما يعطى لتلك الاستجابة قيمة ، لأنها كانت قبل فتح مكة ، وقبل ان تتكشف الأحداث فى بلاد العرب .

وتشير روايات المؤرخين الى أن بوادر القبول لدعوة الاسلام فى البحرين كانت مبكرة ، وكأن ذلك كان سلوكا عرف عن تلك المنطقة قبل غيرها ، اما سائر العرب فقد قبلوا الاسلام بعد الفتح فى السنة الثامنة من الهجرة ثم توالت وفودهم على الرسول فى تلك السنة وبعدها لتعلن الولاء له وقبول دينه .

ومن المعروف ان كتب الرسول لحكام المناطق القريبة من بيئة الاسلام الأولى كانت

فى السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية وقيل ان ستة أنفار من أصحاب الرسول خرجوا برسائله فى يوم واحد فى بداية المحرم من السنة السابعة هـ ، وكان منهم العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدى صاحب البحرين .

وكان الرسول بهذا الصلح قد ضمن المستقبل لجانبه ، وكسب اليد العليا على خصومه ، فأسرعت اليه بوادر النصر بعد ان ألزم هؤلاء الخصوم بالسكوت عنه والامتناع عن حربه ، أو بعد ان قبلوا من جانبهم بالالتزام بمظاهر العجز أمامه فلم يكن غريبا اذن ان يدرك الأذكياء فى بلاد العرب بالبحرين ان المستقبل مع الاسلام دون غيره فيسرعوا اليه قبل مرور الزمن ، وهذا يشير الى ان الاسلام عرف طريقه للبحرين قبل كثير من المناطق العربية الأخرى ، وان البحرين عرفت الاسلام قبل غيرها من بعض بلاد العرب .

***

هذه هى رواية المؤرخين عن قبول البحرين لدعوة الاسلام ، وقد لا تكون هذه الرواية كافية لاقناع الباحثين عن دوافع العرب للتخلى عن الأديان المعروفة فى بيئتهم وبعض هذه الأديان كان متوارثا عبر القرون ثم كان هناك ما يدفع الى قبول بعضها الآخر وبعد ذلك توجد تساؤلات حول قبول العرب دعوة الاسلام ، وثباتهم معه والتزامهم به رغم ما كان يطلبه من تضحيات كانت الحياة نفسها بعضا منها .

وقد تبدو الاجابة على مثل هذه التساؤلات فى القول بالقناعة الثابتة بأفكار عامة تدور حول العقيدة الدينية فى بلاد العرب قبل ظهور دعوة الاسلام ومنها :

(١) لم يكن التدين فى كل بلاد العرب عند المستوى المرغوب فيه عند الدعاة للاديان طول الزمن ، فلم يكن العربى المنطلق فى الاجواء الفسيحة حوله يواجه العقيدة الدينية أو يقف أمامها ، ولم تكن هى بدورها تواجهه وتكيف سلوكه وتصرفاته ولم يكن يدرك لها تأثيرا كبيرا على حياته فلم يعرف نظما دينية ثابتة يقف عندها ولا يخرج عليها ، أو يلتزم بها ويتأثر بها لأهميتها وكان كذلك شخصا واقعيا يدرك الأمور ويلاحظها فاذا نجح فالنجاح عنده لأسباب تتصل بكفاءته وتفوقه ، واذا فشل كانت المسئولية فى جانبه وحده فهو يؤمن بجهده ويعتز بكفاءته ، وقد يلوم نفسه اذا فشل ولكنه لا يأسى على هذا الفشل مهما كانت أسبابه .

(٢) كان الله مذكورا على السنة العرب ومعروفا فى قلوبهم ، يذكره القائل فى شعره ويعلن عن وجوده امام غيره ، غير ان هذه المعرفة المؤكدة لم تؤد فى بلاد العرب الى نتائج حاسمة لأن احدا لم يكن يتعامل مع الناس على هدى من هذه المعرفة ، ولم يكن احد يتوقى القبيح لأنه لا يرضى الله الذى يعترف بوجوده ، ولم يكن هناك احد يتقرب الى الله طمعا فى شىء عنده ، ولا خوفا من شىء يدفع الى غضبه ، فالله موجود حقا غير ان الرجاء فيه يقل الى حد العدم ، والخوف منه قليل أيضا ، الرجاء العاجل فيه غير واضح أو غير ثابت ، والخوف العاجل منه غير مستقر فى مكانه فى القلب واما الأمل فيما يأتى بعد الموت فلم يكن واردا أو مقبولا ، وكذلك كان الخوف مما يكون بعد الموت فالموت عند العرب كان يعنى نهاية الحياة والاحياء وليس بعده شىء تتعلق به الأفهام وتقبله العقول .

(٣) لا تبنى العلاقات بين الأفراد والجماعات على أسس دينية ، ولا على مفهوم الوحدة فى العقيدة ، ولم تكن كذلك تبنى على اساس المخالفة فى الدين لأنه ليس من عوامل الوحدة والانسجام والتقارب كما لم يكن من

عوامل الشقاق والفرقة والخلافات ، فلم تحدث حروب بين العرب باسم الدين ولم تحدث بينهم احلاف باسم الدين كذلك ، وانما كانت الحروب كلها أو جلها باسم المنافسات المعيشية أو باسم المزاعم المتصلة بالشرف والكرامة والاباء والعزة وما يشبه ذلك .

(٤) كانت الوثنية فى بلاد العرب خامدة أو عاجزة ليس لها انصار يفهمونها ويعيشون من أجلها ، غير مقبولة عن قناعة وغير مرفوضة عن يأس فى الوقت نفسه ولا يمكن التضحية بها أو التضحية فى سبيلها ، فهى ميراث ينحدر من الماضى تتجمد عنده المشاعر ، ولا تبحث فيه العقول ، واذا كانت تراثا عن السابقين فعلى اللاحقين الحفاظ على هذا التراث ما وسعتهم الحيلة وليس مهما بعد ذلك ان يكون ذلك التراث مقنعا أو مفيدا ، وكل الدراسات حول الأديان تعتبر ترفا لا يرغب فيها الكثيرون فى البيئة ، وقد لا يستطيعونها ، وتكتسب الأديان عادة بالوراثة لا بالدراسة [٨] ، ولا يشغل أهلها أنفسهم بالنظر فيها ، والمقارنة بينها وبين غيرها .

(٥) كان هناك قلق حول الوثنية فى بلاد العرب اعلن عنه أفراد زادت عندهم الحساسية وارتفعت الشكوك فى قلوبهم ولكن جهودهم لم تكن كافية لاثارة رفض عام ، ولم يكن تأثيره فيمن حولهم قويا ، اذ كانوا أقلية غير منسجمة ، تعمل فى أجواء مغلقة ، وتدعى ما تقدر على الوفاء به ، عرف بعضهم فى مكة حيث بعض آثار دين ابراهيم المفقود فى أرض العرب ، وعرف بعضهم فى المدينة لتأثرها باليهود واليهودية ، وعرف بعضهم فى البحرين لتفتح العقول بها ، وكانت من المناطق التى تزاحمت فيها الأديان .

وعندما أعلن الحنفاء عن رفضهم للوثنية العربية لم يستمع لهم أحد وضاعت صيحاتهم الخافتة فى دنيا صاخبة ، وكانوا يسلكون فى تعاملهم مع الآخرين طريق الحياة كما يعرفها الوثنيون وبذلك انعدمت الفروق بين الرافضين للوثنية والساكتين عنها .

(٦) كانت آلهة العرب كثيرة تختلف أهميتها والدعاوى من حولها ، بعضها مشهور يعرفه الكثيرون وينسجون حوله المزاعم وبعضها مغمور لا يكاد يعرفه أحد ، ولكنها فى جملتها كانت تتحد فى الهدف المقصود منها وهى انها تقرب الناس من الله وبعد ذلك لا يدرى احد معنى هذا القرب أو أهميته .

(٧) ازداد الاعلان عن التمسك بالوثنية فى الأوساط العربية المتطورة ، لا بدافع الايمان بها وانما بدافع التأثير فى الناس ، وهو اعلان كاذب أو مغرض ، ولم يكن الهدف منه الا محاولة الحصول على فوائد عاجلة يسعى الناس اليها عادة بوسائلهم ، وقد يكون هناك من الايمان أو القبول بهذه الديانة ، بمعنى استقرارها فى القلوب الراغبة فى الحماية من الاخطار المحيطة وكانت تشبه فى هذه الحال وسائل الأمن المطلوبة للعاجزين عن امتلاك القوة عند الحاجة اليها .

(٨) ثم كانت المسيحية موجودة فى مراكز ثابتة فى بلاد العرب كلها والبحرين منها وكانت تشق طريقها لاثارة انتباه الجماهير اليها ، ولم يمنع من انتصارها الا عجز وسائل القائمين بالدعوة لها بين العرب .

(٩) وكانت اليهودية كذلك معروفة فى مراكز ثابتة فى بلاد العرب ، وكان يمثلها جماعات كانت تنشط دائما لاكتساب الثروة ، وبقيت تلك العقيدة مجمدة ، يربط اصحابها بينها وبين قوميتهم الاسرائيلية ، وربما لم يكن اليهود يرفضون ان يكون

غيرهم يهوديا مثلهم غير انهم لم يبذلوا من الجهد ما يكفى لكسب الكثير الى جانبهم .

***

لم تكن بلاد العرب ومنها البحرين مغلقة لحساب دين تعرفه ، حتى ولو كان لواحد من هذه الأديان وهى الوثنية - أغلبية عددية [٩] ، وانما كانت كل الأديان ممثلة فيها ، وهذا يعنى ان أى سلطة فى بلاد العرب لم تكن تستطيع القول بحقها فى حماية الدين الغالب على اتباعها [١٠] .

ولقد عرفت بلاد العرب جملة الأديان التى عرفتها المناطق المجاورة لها فدين ابراهيم وفد على بلاد العرب [١١] ، وكذلك وفدت عليها الوثنية بعده من بلاد الشام وهاجر اليها اليهود مضطرين أو مختارين بحثا عن فرص الثراء بها وتهيأت لدعاة الأديان مناسبات النجاح فى بلاد العرب بسبب ضعف الوثنية بها ، ولشيوع التسامح فى البيئة ، وعدم وجود سلطات رافضة ، ولم يكن فهم العربى لدينه يزيد على انه من بعض التقاليد المنحدرة اليه مع الزمن ، واما اهميته فى ذاتها ، وفائدته له فهو لا يبحث عنها ، ولا يقف عندها ، ولا يشغله أن يكون الناس على دينه ، أو على الضد منه ، لأن الدين فى جملته لم يكن أحد شواغله .

وتعاملت جميع الأديان فيما بينها فى بلاد العرب على هذا المستوى [١٢] ، مع التسامح والرغبة فى التعاون ، والمعاشرة بالحسنى ، وعدم اللجوء للمناظرات والمقارنات .

ولقد جاءت المسيحية هي الاخرى الى بلاد العرب، وكسبت من اهلها انصارا اقوياء، فكانت هناك دولة مسيحية للعرب الغساسنة في بلاد الشام، وقيل ان بعض ملوك هذه الدولة كانوا من رجال الدين المسيحي، او كانوا يمثلون دور البطارقة في مجتمعاتهم[١٣] ، فاندفعوا مع الخصومات المذهبية الدائرة بين المسيحيين الى نهايتها، وكانوا ينصرون مذهبا مسيحيا على مذهب مسيحي آخر وتسربت المسيحية الى دولة العرب اللخميين بالعراق، فكانت هناك كنائس في قصور بعض الملوك لنسائهم المسيحيات، وقيل ان الكنائس هناك كانت تقوم بدور ثقافي هام، ولم تكن ترفض قبول الطلبة من جميع الأديان وكانت هناك معابد مسيحية على الطرق المتشعبة في بلاد العرب، ثم كانت مواعظ المسيحيين تلقي على العرب عند تجمعاتهم الموسمية[١٤]، وعرفت قبائل عربية انتشرت فيها المسيحية، ورغم ذلك كله ظلت وسائل المسيحيين للدعوة لدينهم عاجزة عن الوصول لمراحل الانتصار الاخيرة في بلاد العرب[١٥] ، واستمرت بطيئة متوانية في هذه البلاد، وحاول العاملون من اجلها استغلال عامل الزمن لصالحها وساروا في طريق رتيب بغير حيوية، وكانوا يرتبطون بنفوذ الدول المسيحية وبالسياسات الاجنبية ولعل ذلك كان من بعض اسباب النفور منهم والانصراف عنهم.

***

لم تكن مهمة العرب اذن دراسة هذه الاديان لادراك مدى صلاحيتها للحياة في اوساطهم، فلم تحدث هذه الدراسة، وما كان لها ان تحدث في تلك الحال، وانما بقي كل شيء في مكانه على ارض العرب وثنية خامدة او راكدة، ويهود يمارسون وسائلهم الاتانية، ومسيحيون يعيشون مع السلبية[١٦].

وعرفت البحرين هذه الاديان جميعها، كما عرفتها بلاد العرب الاخرى، فكان نجاح اليهودية بها محددا او منعدما، لان ممثليها كانت لهم وسائل منفرة وعرفهم الناس جماعات مستغلة تشم رائحة الدسم من

مكان بعيد، وكان في البحرين بعض اليهود من العرب الاسرائيليين وفدوا عليها منذ انهزام اليهودية في بلاد اليمن امام الاحباش المتعصبين سنة ٥٢٥م، لأن البحرين بدت بعيدة عن سلطة الاحباش المندفعين بالهوى للقضاء على خصومهم اليهود.

وأما المسيحية في البحرين فقد كان هناك ما يخدم قضيتها اذ كانت مؤيدة بعناصر اجنبية قوية، وكان لها انصار يتحمسون لانتصارها، ويشعرون باشراقات أمل في جانبها، لان نسائم انتصاراتها كانت تصل البحرين من بلاد العرب القريبة منها واذا ارتبطت البحرين لفترات من التاريخ بدولة العرب المناذرة بالحيرة فقد اخذت المسيحية طريقها اليهم، ومن داخل قصور الملوك انفسهم، ومن ثم طرقت المسيحية الابواب في البحرين بعنف وثقة، فتمسح بها بعض العرب، وتمسحت بها بعض القبائل الشهيرة مثل بكر وتغلب وعبد القيس، فقيل ان جملة من افراد هذه القبائل كانت اقرب للمسيحية من غيرها، وعرفت هذه القبائل المسيحية عن طريق الانتشار البطيء وبعوامل الزمن، وعرف من وسائل الدعاة للمسيحية انهم لم يهتموا بتمايز انصارهم عن غيرهم من اتباع الاديان الاخرى، فلم تكن هناك فروق مميزة للسلوك الاجتماعي بين المسيحيين وغيرهم من الوثنيين العرب.

وكان حاكم البحرين في بداية عهد الاسلام - وهو المنذر بن ساوى[١٧] مسيحيا وكذلك كان الجارود زعيم بني عبد القيس، ولكليهما دور كبير في خدمة الاسلام بعد الرضا به.

وساد بالمنطقة مذهب النساطرة المعروف في بلاد الشام، وعرفت بها الكنائس المسيحية، وانتشر رجال الدين المسيحيون في البحرين، واشتهرت اسماء بعض القساوسة، وملكوا الأجواء من حولهم ولعلهم كانوا يحاولون سد الطريق امام المجوسية الايرانية، اذ كان العداء والمنافسات قوية ومعروفة بين ممثلي المجوسية والمسيحية في ذلك الزمن، غير ان الصراعات العسكرية الطويلة المتبادلة بين الطرفين لم تكن لأسباب دينية، ولم يكن للدين عند الجانبين اثر فيها، لأن الفرس كانوا أبعد الناس عن القتال باسم دينهم، لأن المجوسية كانت في رأيهم نوعا من الديانات القومية القديمة[١٨]، فلم يتحمسوا لقبول الآخرين لها ولم يغضبوا من انتشار المسيحية في المناطق العربية القريبة من بلادهم، الا اذا اقترن هذا الانتشار بالتبعية السياسية للدولة البيزنطية المعادية[١٩].

لقد كانت الحروب بين الفرس والروم لأسباب سياسية واقتصادية، وكانت الخصومة بينهم طويلة وعارمة حتى اقام كل منهم لنفسه دولة حاجزة تؤدي دور مراكز المراقبة الامامية ايام الحروب، ففي جانب الروم قامت دولة الغساسنة بالشام وفي جانب الفرس قامت دولة المناذرة بالعراق، وكلتا الدولتين العربيتين كانتا تؤديان دور الحراس لحساب هؤلاء الأقوياء، وبينما كان الروم ينصبون انفسهم حراسا للمسيحية في العالم، ويهتمون بنشرها في كل مكان كان الفرس لا يقومون بدور مماثل لخدمة المجوسية، رغم انها كانت تواجه صعوبات من داخلها، حتى لقد اتخذت الخلافات حولها صورة التشكيك في صلاحيتها في وقت كان فيه المسيحيون يختلفون فيما بينهم من اجل الاهتداء لرأى سليم او مقبول حول طبيعة المسيح المزدوجة.

ولذلك انتشر الدعاة للمسيحية حتى في المناطق الخاضعة لنفوذ الفرس وبقيت المجوسية بدون دعاة حتى في بلاد الفرس نفسها[٢٠]

ورغم ذلك عرفت المجوسية في مناطق

البحرين العربية، وكانت ممثلة في جماعة من اهلها ودان بها بعض ذوى النفوذ من العرب، وكان منهم رؤساء من بني تميم ولهم صلة بحاكم البحرين[٢١]، في ذلك التاريخ وكأن هذه الاسرة العربية الحاكمة او بعض رجالها ـ قد حاولت القرب من شاهات الفرس عن طريق الاشتراك في العقيدة المجوسية، واذا لم تكن هذه المحاولة مثيرة لاهتمام ملوك الفرس، فانها مع ذلك كانت عنوانا على حسن النية، او كانت محاولة للترضية والزلفى، واذا قيل ان نظام الزواج عند الفرس لم يكن يناسب ذوق العرب المترفعين عن الاتصال بالمحارم، فلا شك ان هذا القول نابع من المفاهيم الاسلامية الرافضة لهذا السلوك والا فان الذوق البشري قد تختلف احواله لأسباب كثيرة، والمعروف ان الأديان تكيف اذواق اتباعها وتوجهها لقبول مبادئها، وعندها يصبح المرء عاجزا عن النظر فيما وراء هذه المبادىء.

ثم تبقى بعد ذلك حقيقة ثابتة وهي ان هؤلاء القادة العرب اذا كان بعضهم قد تزوج من ابنته او اخته، كما كان يبيحه له دينه، فلا شك ان هذه التجربة المثيرة لم تكن في صالحه، واذا كانت قد قربته من القيادات الايرانية فانها في الوقت نفسه قد ابعدته عن نظرائه العرب الراغبين عن تلك المحاولة، والمعروف انها لم تدفع احدا الى تقليدها او قبولها او الرضى بها.

***

لم تقف اهتمامات العرب اذن امام دين واحد في بيئتهم، ولم تثر انتباههم اية جاذبية[٢٢]، في اى من الأديان المعروضة امامهم، ولذلك استمروا راغبين عن تغيير الوثنية المتوارثة حتى ولو لم يكن لهذه الوثنية نفسها جاذبية خاصة تدفع الى الاستمساك بها سوى انها تراث عرفته وتوارثته الأجيال.

ولم يكن ذلك لسبب فى طبيعة العرب كأمة لها عقليتها وفهمها ومزاجها، وانما كان ذلك لوجود فساد عام[٢٣]، عرف عن سلوك كل الدعاة للأديان في بلاد العرب ولوجود نقص في الوسائل المؤدية لانجاح اى من هذه الاديان، ولم يكن العرب من جانبهم ـ وكذلك سائر الأمم في عصرهم ـ على استعداد للوقوف عند البحوث النظرية المتصلة بالعقائد الدينية، اذ كانت الجهالة عامة ـ في بلاد العرب وغيرها وبنسب متفاوتة ـ ولما حاولت الأديان تعطيل هذه الجهالة او الحد من انتشارها، وان ترشد الناس الى الوضع الأحسن، ما كان من وسائلها الاقناع بالمقارنات النظرية او المناقشات الفلسفية، وانما كانت تحاول جذب الاولياء بمغريات مقبولة تثير اهتماماتهم العاجلة او الآجلة.

ومن الصحيح ان احدا لا يدري كيف اقتنع العرب بوثنيتهم السائدة[٢٤]، وربما لم يكن هناك شيء من القناعة بها، وان ما عرف عنها لم يكن غير نوع من الوقوف عندها او الجمود عليها، وعدم الميل للنظر فيها، ثم بعد ان اصبحت ثابتة في البيئة الملتزمة، او المغلقة كان من اللازم للأوفياء ان يبقوا على الأوضاع السائدة كما تعارفت عليها الجماعة، وليس فى ذلك شيء من الغباء او عدم الادراك بقدر ما فيه من الانصراف عن التورط في التبعية لبعض الأديان الوافدة او المشبوهة، بينما المعروف في الوقت نفسه ان احدا لم يجد عند دعاتها الكثير مما يخالف السلوك السائد بين الجماعات الساعية لممارسة الحياة بالوسائل المتعارف عليها.

ولقد ارتبطت بعض الاديان المعروفة في بلاد العرب بصلات قوية مع مصادر اجنبية خارج بلاد العرب ولم تكن واحدة من القوى الداعية لهذه الاديان مخلصة في نشر دعوتها مثل اخلاصها للاستفادة من انصارها،

فكانت الاهداف السياسية والأغراض الاقتصادية والمنافسات الدولية تواكب محاولات الدعاية لهذه الأديان، واذا لم يكن العرب جميعا اذكياء ـ وليس في كل الدنيا شعب يوصف بالذكاء، وشعب آخر يوصف بغير ذلك ـ فان نسبة الذكاء فيهم كانت راجحة او غالبة ومن يعرف تاريخهم، وشيئا عن نتائج قرائحهم في الأعمال الأدبية وغيرها يدرك حدة الذكاء عندهم، وهذا يعني انهم كانوا يدركون الكثير مما يحيط بهم حول الأديان وغيرها.

او نقول مع الوضوح والصراحة ان المسيحية كانت هي الدين الذي اخلص دعاته في العمل من اجله ولكن رغم هذا الاخلاص فقد ضل هؤلاء الدعاة الطريق الى الوسائل الكفيلة بانجاح هذه العقيدة في مثل الأحوال السائدة في بلاد العرب ولهذا السبب وغيره استمرت المسيحية قرونا طويلة[٢٥] عاجزة عن الانتصار في بلاد العرب[٢٦].

وكأننا نقول اخيرا ان العرب في البحرين وغيرها وجدوا الجاذبية الحقيقية في الاسلام دون غيره من الأديان، لأنه بدأ حركة اصلاح قوية من اجل التغيير الى الأحسن، ثم كان حركة نابعة من بلاد العرب نفسها، لا تعرف التبعية، ولا تؤمن بالارتباط مع اية قوة، تدعو الى الغايات المرغوب فيها بطريقة تتناسب مع السلوك السائد في المنطقة العربية.

لقد كان الاسلام اذن دفعة حضارية فتحت امام الراغبين مجال العمل للمستقبل، وقام على شئونه رجال فيهم القدوة والكفاءة، وعندهم الرغبة في اثبات الوجود ولو بالقوة والتضحية عند الضرورة، يخاصمون الفساد ويسعون للقضاء عليه، لا يعرفون مسايرة الآخرين على حساب مستقبلهم، يسرعون نحو التغيير، ويسابقون الزمن، يسمحون للمخالفين بالحياة مع الحرية مع الارتباط بنظام متفق عليه، وكان هذا الاتجاه مسايرا لفلسفة الحياة عند العرب، او نقول انه كان فهما متطورا لفلسفة الحياة كما يريدها الأحياء من البشر طول الزمن.

ولا نقول مع ذلك ان المواطنين العرب في البحرين ادركوا هذه المفاهيم قبل غيرهم او انهم ادركوها بوضوح ـ كما ندركها ـ نحن اليوم بعد تطاول القرون والا كانوا يمثلون مستويات عقلية تفوق المستويات السائدة في الأوساط العربية الأخرى. وانما نقول انهم باسراعهم نحو قبول الاسلام ـ كما تشير الى ذلك تقارير المؤرخين الموثوق فيهم ـ كانوا اقرب لهذا الفهم من غيرهم.

ولا شك أن قبول الناس في البحرين لدعوة الاسلام بعد عرضها يشير الى شيء لم يكن معروفا في مناطق عربية اخرى، ولعل من ذلك الرغبة في الارتفاع بالحياة والوصول بها نحو الأفضل، ولعل من ذلك ايضا الاحساس بالوجود، والاعتراف بالنفس، والأمل في التحرر من المظالم، والبعد عن التبعية للآخرين.

لقد بدأ الاسلام فتيا يدعو الى الاسراع نحوه، ورغم انه كان يطلب من انصاره الكثير من التضحيات الا انه كان يعطي في مقابلها ما يزيد عليها، ومن ذلك السيادة في الدنيا، والعزة الفردية والجماعية، والوجود الصحيح مع الحياة البشرية، ثم هو يقول بحياة اخرى قد تكون اسمى من ذلك للعاملين من اجله[٢٧].

ويشار مع ذلك الى ان البحرين عاشت مع الأديان وعرفت عن بعضها ما لم تعرفه مناطق عربية اخرى، ولقد بدت بعض المناطق وكأنها اوشكت ان تصبح مغلقة لحساب دين واحد، او ان تسود فيها سلطة احد الاديان دون غيره، اما مناطق البحرين فقد عرفت عن قرب ـ الوثنية العربية،

والمجوسية الايرانية، والمسيحية الدولية، واليهودية الهاربة، والاسبذية المحلية[٢٨]، ولا شك انها عرفت ايضا الكثير عن أديان الهند الكبرى، لأنها كانت منطقة احتكاك اممية، تعاملت مع العالم وتعرفت عليه.

الردة في البحرين

وبعد قبول الاسلام والتعرف عليه في البحرين ، أسرعت الوفود العربية ـ عام الوفود ـ الى المدينة لتعلن أمام الرسول الرضا بدينه ، والولاء له ، وكان منها وفد من البحرين برئاسة عبدالله بن عوف الاشج[٢٩] ، وربما كان من رغبات هذا الوفد ان يشبع حاجات كامنة في قلوب أفراده ، وان يستجيب لعوارض طارئة في وقتها ، فعالج الرسول أحوال هذا الوفد بحكمته المعهودة ، وفتح له قلبه ، وزوده بنصائحه ومكارمه ، فرجع أعضاء الوفد من عنده راضين عنه ، واعين مقاصده .

ثم ذهب وفد آخر من البحرين الى المدينة في السنة العاشرة من الهجرة بزعامة الجارود بن بشر بن عمرو بن المعلى [٣٠] وكان مسيحيا فأسلم ، وأكد له الرسول انه أصبح مع الحق بعد اسلامه ، وسارت الامور في البحرين بعد ذلك الى غايتها ، حتى مات الرسول . ومات كذلك حاكم البحرين المنذر بن ساوى في وقت قريب من وفاته سنة ١١هـ ، فارتدت بلاد العرب كلها أو أكثرها كما تذكر الرواية ، وعرفت الردة عن الدين في مناطق البحرين بدورها .

ومع ان قيادة المرتدين في البحرين لم تكن على دراية بالاوضاع من حولها ، ولم يكن لها من القوة ما تستطيع به ان تقوم بالدور الذى مثلته الزعامات المرتدة في المناطق العربية الاخرى ، الا ان قصر الفترة التى اعتنق الناس الاسلام فيها لم يساعد على استقراره وثباته وكانت هناك أديان أخرى تعيش في المنطقة مع اهدافها ورغباتها ، ولها انصار يدركون خطر الاسلام على وجودها ، فاذا لم يسهموا مع المرتدين في الصراع المعلن ضد المسلمين فانهم مع ذلك قاموا بدور معارض ، لاذاعة الشر والتحريض على المقاومة .

كانت هناك اذن سرعة ملاحظة في الاستجابة للاسلام في البحرين تدل على عدم الولاء لغيره ، وكانت هناك ايضا سرعة في رفضه تدل على عدم الاستقرار عليه والثبات معه ، وجاءت عوامل كثيرة من داخل البيئة لم تكن لها آثار ايجابية قوية ولم تكن مع ذلك في جانب السلبية العاجزة .

ولذلك استمر الاسلام في البحرين ـ بعد وفاة الرسول ـ في حاجة لكى تثبت دعائمه ، وتنمو جذوره ، فجاء دور اصحاب الرسول ليحققوا هذه الغاية ، وكانوا عند مستوى التحدي المفروض عليهم ، فاندفعوا مع العزم الثابت لوضع الأمور في مكانها ، وأدركوا ضرورة العمل السريع لالزام الناس بالرجوع عن الخطأ ، وواجهتهم في البحرين معارضات غير مؤسية ، وان لم تكن في الوقت نفسه ضعيفة أو متخاذلة ، وأصبح هناك طرفان يواجه أحدهما الآخر : طرف يرى ضرورة الانتصار للدين وفرضه على من خرجوا عليه ، وطرف آخر يحاول التجربة بالرفض والانكار بعد أن أصبح هذا الاتجاه ظاهرة عامة تسود بلاد العرب كلها ، وبعد ان عرفت له زعامات كثيرة مستأسدة .

وجاء العلاء بن الحضرمي الى البحرين[٣١] مرة أخرى ليقود المسلمين في حربهم ضد المرتدين ، ولحقت به نجدات الدولة ، وناصرته عناصر متحمسة من البحرين نفسها ، فحارب وانتصر بعد ان دفع عدد من جيشه ضريبة الحياة بالتضحية .

***

وهذه أيضا رواية التاريخ حول حادثة

الردة في البحرين بعد وفاة الرسول وقد تبدو الآن غير كافية لشرح ظاهرة الارتداد في البحرين بعد ان كسبت لنفسها امتيازا وتفوقا على كثير من المناطق العربية الأخرى باسراعها نحو الاسلام بدون عنف .

ونقول للبيان والتوضيح انه يفهم من روايات المؤرخين أن ثلاث مدن عربية بقيت ثابتة على الاسلام وحدها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان لهذه المدن الثلاث أوضاعها الدافعة لمثل هذا الثبات حتى النهاية ، وأما غيرها من المواطن العربية فلها قصة أخرى .

فقد كانت المدينة دار الاسلام ، عرفته وعرفها ، والتزمت بنصرته أمام التاريخ وعاش فيها وعاشت معه وتحدت به دنيا العرب وتحدى بها الاسلام كل خصومه ومعارضيه ، وقضى بها الرسول أخصب فترات حياته ، وكسب مع أهلها أعظم انتصاراته ، فما كان ممكنا ولا مقبولا ان يرتد أهلها أو بعضهم عن الاسلام ابدا .

وعرفت مكة الاسلام قبل المدينة ، وكان لها معه دور طويل ، فقد قاومته بعنف ودافعها عن نفسه بقوة ، وتحدته وقبل التحدى أمامها ، وصبر عليها حتى انتصر بعد سلسلة من المحاولات المذكورة في كتب كثيرة ، دون ان تكون لهذه المحاولات روح الاتجاه نحو تحطيم العلاقات بين الجانبين ، ثم جاءت النهاية لصالح الدعوة وصاحبها فقبل أهلها الدين الجديد عن قناعة وادراك ، ووجدوا فيه حاضرهم ومستقبلهم وحياتهم معا ، وأعفاهم الرسول من مسئوليات الخصومات القديمة وتبعاتها ، وكأنما ولدوا من جديد بعد هزيمتهم أمامه ، فاستأنفوا معه نشاطا جديدا ، وتفتحت أمامهم مجالات العمل قادة في كل مكان وموجهين وعاملين حسب كفاءتهم ، فلم يعد ممكنا ولا مقبولا ان تنقلب حياتهم الى الاسوأ بعد هذه القناعة والرضا والمثوبة والأمل .

ثم كانت الطائف ثالثة تلك المدن الثابتة مع الاسلام حتى النهاية ـ تعيش كذلك مع مثل هذه المفاهيم ، ولعل تأثرها بما حولها دفعها لهذا الصمود المحمود ، فزرع الايمان في هذه المناطق وحدها وجد الوقت الكافي لتأكيده وتثبيته وتأصيله ، وأما بلاد العرب الأخرى فكانت محاطة بأجواء تخالف ذلك كلا أو بعضا ، فلقد راقبت الأحداث حتى تكشفت الصورة أمام الناس ، فأصبح أحد الطرفين غالبا والآخر مغلوبا ، وكان بعضها يعتبر الصراع السائد بين المسلمين والقرشيين نوعا من الخصومة بين رجل وقومه ، فوقف يتفرج على الأحداث من بعيد ، أو اتبع من الوسائل ما يبعده عن المشاركة فيما لا يعنيه .

وبعد ان انتهت الخصومة في وقتها بشيء من التضحية ، أو بشيء من العنف المعهود في الحروب العربية أسرعت القبائل المترددة للاعلان عن قبول التبعية وبطريقة جماهيرية شاملة ، وكان زعماؤها يرون مصالحهم في القول بالولاء لصاحب الدعوة حتى ولو لم يكن لهذا القول مضمون ، ويأتي بعدهم دور اتباعهم بالتبعية ، وتندفع بعد ذلك الوفود العربية معلنة ارتباطها بالحدث الجديد وتتجول وفود المسلمين من جانبها لتعظ بالدين وتشرح مبادئه ، وكأنما انتهت الاحداث عند هذه النهاية .

ولكن قصر المدة بين الاعلام عن قبول الدين وبين وفاة الرسول هيأت المناسبة لرفض الدعوة بنفس الحماس الذى قبلت به في البداية ، وامتلأت بلاد العرب بزعامات طموحة ترى حياتها ومستقبلها في تسنم مجتمعاتها القبلية ، وتوجهها لتحقيق غاياتها ، فأخذت تضرب على أوتار العصبية القبلية وتنادي ببعض الاعتراضات

الرافضة لبعض مبادىء الدين الجديد[٣٢] .

فالارتداد لم يكن اذن أمرا غريبا ، كما ان الاعلان عن قبول الدين لم يكن كذلك أمرا غريبا ، وبقاء ثلاثة تجمعات عربية مع الايمان بالدين حتى النهاية ليس أمرا غريبا أيضا واما الغريب حقا فهو ان تبقى بعض بلاد العرب البعيدة عن مراكز الايمان كالبحرين على ايمانها بنصيحة واحد من رجالها[٣٣] ، أو نقول انها انقسمت حول قضية الايمان الى جماعتين متعاديتين ، غلب على واحدة منها الوعي والادراك والرغبة في الخير بعد التعرف عليه ، وغلب على الأخرى الرغبة فى الانطلاق من قيود التبعية لدين من الاديان .

***

لم تكن اذن حركة الارتداد عن الاسلام فى البحرين عنيفة أو شاملة ، ولم تظهر من بين أهلها زعامات قوية ترفض الدين أو تدعى النبوة وانما وجدت بها عناصر تائهة تجمعت حول زعيم بغير كفاءة يسمى الحطم بن ضبيعة ، فكان عليه ان يواجه منذ البداية ما يكشف عن بوادر فشله لان عناصر من البيئة نفسها أخذت تستجيب للنصائح المتعلقة ، وتحملت مسئولية الدفاع عن رأيها وكأن مظاهر الهزيمة واجهت هذا المرتد منذ البداية ، وهو شىء لم يعرف فى بلاد العرب الأخرى .

ومن الصحيح ان الحماس ضد الاسلام لم يكن واضحا فى البحرين ، كما لم يكن الحماس واضحا فى جانبه أيضا ، وكان ذلك فى وقت عصيب امتلأت فيه بلاد العرب بالرافضين والمتنبئين والراغبين فى البعد عن جميع القيود ، واذا لم يظهر ميل فى أى مكان نحو استئناف الحياة مع الوثنية العربية من جديد ، فقد كان مأمولا ان يكون هذا الميل أبعد في البحرين منه في أي مكان آخر .

واختلفت البحرين عن غيرها في أن قوة المرتدين في المناطق العربية الاخرى كانت تنميها دوافع العصبية القبلية ، بدعوى رفض التبعية ، وعدم قبول المركزية ، أو بنوع من الدعاوى الكثيرة الاخرى ، ولم يظهر اتجاه نحو الوحدة السياسية ، أو الاشتراك بالعمل في شىء واحد ، وظهرت انتفاضات قوية في أماكن مختلفة ، حيث تتجمع العصبيات ، وتعرف مراكز النفوذ ، وكلما زادت درجات التخلف وكلما ضاق أفق التفكير ازداد الحماس لزعيم من الجماعة ، ولم يكن مهما أن يعرف الكثيرون شيئا من أمر هذا الزعيم أو غيره وانما سيطر في الأفق جو حماسى بغير وعى ، أو بوعي مريض يميل نحو الانقسام والتشرذم .

لقد كانت الردة في البحرين من نوع متهالك ، لا تبعية مطلقة لاتجاهات معارضة ، ولا زعامات محلية مؤثرة ، ولا بديل لما يرغب بعض الناس فى تبديله ولا اصرار على شىء بعينه ، ولم ترتفع صيحات العصبية ، ولم يعرف التظلم من بعض أركان الدين ، ولم يعلن الرافضون عن شىء واضح ، وكأنما سادت في بلاد العرب ظاهرة مرضية أفسدت الأجواء كلها ، وسارت بالجميع نحو متاهات مظلمة[٣٤] .

ثم بحث المرتدون في البحرين عن رئيس لهم من خارج المنطقة ، فدعوا لهم سيدا ينحدر من سلالة الملوك المناذرة أصحاب الحيرة[٣٥] ، وهذا يعني ان احساس المواطنين في البحرين بالارتباط ببلاد العرب القريبة من بلادهم كان قويا ، وكانت بلاد العراق الجنوبية أقرب المواطن العربية تأثيرا على الناس بهذه المنطقة .

لقد انحسرت أسباب المشكلة اذن في قصر المسافة بين الاتصال بالدين ووفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجاء عامل

جديد زاد موقف المسلمين حرجا ، وهز وجودهم في البحرين هزا عنيفا وهو وفاة رئيسهم المنذر بن ساوي التميمي قرب وفاة الرسول ، وبهذه الوفاة أصبح تابعو الدين الجديد بدون قيادة ، وان لم تطغ عليهم عوامل الفساد الشائعة في بلاد العرب الاخرى .

وجاءت النهاية بأن وقفت قوتان من داخل المنطقة ، تواجه احداهما الأخرى ، فقاد الحطم المرتد جماعات شبه هازلة ، ونزل القطيف وهجر ، وحاصر المسلمين في دارين وجواثا[٣٦] ، وطالت فترات الحصار مدة كانت كافية لوصول النجدات المطلوبة ، وظلت الحرب مناوشات لمدة تقرب من زمن الحصار ، وبعد ذلك مكن المرتدون لخصومهم من أنفسهم ، فسكروا بالليل ، وارتفع صياحهم بالهذيان في وقت الجد ، فأسرع اليهم المسلمون لينهوا الحرب لصالحهم ، وتلك ظاهرة تشير الى عدم الجدية في الجانب المعارض ، والى عدم الادراك لحقيقة الحال[٣٧]

وبعد الانتصار على تلك الشراذم الهازلة تجول المسلمون في مناطق البحرين يتحدون الخطر ، ويقتحمون الصعوبات ، فلم يواجهوا مقاومات أخرى ، وحصلوا على غنائم تكشف عن سلامة الاقتصاد بالمنطقة رغم ذلك الاضطراب والفوضى[٣٨] .

الحرب في ايران :

قلنا ان المواطن العربية في البحرين لم تعرف زمن الردة زعامات طموحة ، لها تطلعات قيادية هادفة كما عرف مثل ذلك في كثير من المناطق العربية الاخرى[٣٩] ، ولم تعرف كذلك متنبئين تضطرب آراؤهم حول رغبات مختلفة ، ولم تعرض قبيلة في البحرين من بينها زعيما سياسيا ، أو نبيا دعيا على القبائل الاخرى لتقف معه أو تقاتل دونه ، ولم يعرف بهذه المنطقة ما عرف بغيرها من حركات انفصالية من داخلها وانما كانت تقف مع القلق والترقب ، ولعلها كانت أبعد من غيرها عن الاقتناع باتجاه دون غيره ، أو نقول انها كانت في حال وسط بين الشك واليقين ، كما كان ذلك شأنها في بعض أحوالها ، لقد رفض غيرها الاسلام جملة ، أو رفض بعضا منه ، وحارب أهله وانهزم أمامهم ، أما الناس في البحرين فقد انقسموا الى جماعتين : ترفض احداهما الدين كله ، وتنتظر الاخرى تطور الاحداث معه ، ثم حسم أحد الطرفين الموقف لصالحه وكانت المعارك غير حاسمة وغير مؤسية ، تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة ، كأنها كانت مباراة بين فريقين يجد أحدهما ويهزل الآخر ، ثم انتهت لصالح الأقوياء بمثل المحاولات المعهودة في بلاد العرب .

ثم بعد هذه الخصومة الطارئة بين جماعتين من البحرين اندفع المنتصرون بالحماس والرغبة لعمل شيء لصالح قضيتهم في بلاد الفرس بعد ان أملت روح المنطقة على قائدها هذا الاتجاه الجديد ، وكان هذا القائد يرى في رجاله ما يكفي من الرغبة لقيادتهم الى السواحل الايرانية القريبة[٤٠] ، وكان العلاء بن الحضرمي يمثل روح الحماس السائدة في مناطق البحرين لصالح دعوة الاسلام ، فرأى القيام من جانبه بمحاولة جريئة ضد بلاد الفرس التي يعرفها أهل البحرين ، ولعلهم كانوا أول العرب ادراكا لمظالم حكامها في عصور سابقة .

وكان المعهود عند الطرفين ان تغلب قوة أحدهما الآخر وان تحاول فرض نفسها عليه ، وكان ذلك أشد وضوحا في جانب الفرس منه في جانب العرب ، ففي محاولات كثيرة كان الفرس يسعون لتثبيت وجودهم في بلاد العرب لفترات تطول أو تقصر تبعا لقوتهم وضعف خصومهم ، ثم كان العرب

من جانبهم يرفضون التبعية للفرس ، ويعيشون أمامهم تحت الخطر بالشجاعة والاستعداد للتضحية .

لقد كان العلاء اذن يمثل الروح السائدة في مناطق البحرين التي كان واليا عليها ، ودفعته هذه الروح لكي يسرع في محاولته ليضيف الى جهوده الناجحة ضد المرتدين جهودا أخرى مماثلة وليأخذ دوره بجانب القواد الكبار في الجبهات الاسلامية الاخرى [٤١] ، وكان بذلك يرضي حاجة في نفسه ، ويستجيب لعواطف شعبه .

اندفع العلاء اذن بالحماس فنقل جيشه من البحرين الى بلاد الفرس ، وترك سفنه بغير حراسة ، أو مع حراسة عاجزة ، وتقدم للفتح كما يفعل المغامرون المستبسلون ، وكان سعيدا لانفتاح مجالات العمل العسكري امامه ، فتركه الاعداء يسير حيث شاء في بلادهم بغير حذر ثم حاصروه بعيدا عن مكان البداية ، وقطعوا عليه الطريق فأصبح عاجزا عن الحركة ، وضاقت أمامه سبل العمل المفيد ، وكان عليه ان يواجه الخطر بالشجاعة وحدها ، ولكن الشجاعة لم تكن كافية في مثل حاله تلك ، كما لم تكن كافية بعد ذلك أمام نظيره في الشجاعة عقبة بن نافع في شمال أفريقية بعد ان اندفع بفرسه الى سواحل المحيط قائلا : انه لو كان يعلم ان وراء الماء يابسة لخاض بفرسه البحر ، جهادا في سبيل الله ، وعند رجوعه قطع عليه خصومه الطريق ، فكان عليه ان يواجه هذا الخطر المفاجيء بالشجاعة وحدها ولما لم تكفه الشجاعة دفع حياته ثمنا لحماسه وتسرعه ، ومات شهيدا مع بعض رفاقه .

ولكن العلاء بن الحضرمي وجد من أسرع لنجدته في الوقت المناسب ، فاندفعت له جيوش المسلمين من البصرة وأبعدت عنه الخطر ، وبذلك نجا مع بعض جيشه من هزيمة أشرفت عليه ، وأسرع هو من جانبه اليها ، وكان عليه ان يواجه المسئولية أمام الخليفة[٤٢]، الرافض لكل مظاهر الفشل والعجز والهزيمة .

وغضب عليه الخليفة عمر بن الخطاب لتسرعه ، رغم تاريخه وجهوده ، وحسن نيته ، فعزله ونصحه بالسير الى مكان آخر .

وكان العلاء مجاهدا شجاعا ، شديد الاخلاص صادق العزم ، بعيدا عن الشبهة ولعله أراد ان يسابق الزمن بالعمل لصالح الدين والدولة ، وهذا شيء مفهوم وثابت ولكن تسرعه لا يضعه في صفوف القواد المدركين لأهمية الرأي قبل الشجاعة ، ولم تكن القضية في جانب الدين وحده ، قد يكفي لها الحماس احيانا ، وانما كانت قضية دينية وعسكرية ومصيرية في وقت واحد .

ومن الصحيح ان نقول ان المسلمين في البحرين كان لهم شرف ركوب البحر قبل غيرهم من أجل الجهاد الديني ، وان نقول انه اذا لم يصادفهم النجاح في هذه المحاولة فهذا شيء يرد في حالات أخرى ، ويحدث مثله مع قواد آخرين وفي عصور مختلفة[٤٣] .

واذا كانت هذه الحملة فاشلة من وجهة نظر المسلمين وخليفتهم في ذلك الوقت فذلك لانهم كانوا يستفتحون العمل العسكري في جبهات أخرى ، فكانوا حريصين على الا يتعرضوا لما يجرىء عليهم الاعداء أو يثبط فيهم الهمم .

واذا لم ينتصر العلاء فهو لم ينهزم في الوقت نفسه وانما طلب النجدة اذ كان في حاجة اليها ، وطلب النجدة معهود في حالات مشابهة ، غير ان هذا الخليفة كان يرفض الحياة مع الهزيمة ولا يرضى بالفشل مهما كانت أسبابه ، ثم كان شديد

الحساسية[٤٤] ، يدفعه الحرص على النجاح الى ان يضع الجميع امام مسئوليتهم عن اعمالهم أمامه مع مواجهتهم بالعنف والصرامة والاتهام ايضا[٤٥]

لقد كانت وسائل المسلمين في الحرب خلال تلك العهود المشرقة مبنية على أسس متطورة فكانت المسئولية في يد المسئولين عن ادارة الدولة ، ولم يكن هؤلاء المسلمون يعرفون العشوائية ، ولم يعوزهم الفهم السليم في جميع الاحوال فلا يتوقع احدهم نصر الله الا ممن ينصر نفسه ، ولمن يستحق ذلك النصر ، ولم يتعاملوا مع اعدائهم الا في الوقت المناسب والمكان المناسب ، وبقيادات وجيوش مناسبة ، وكانوا دائما يطالبون قادتهم بالنتائج المرغوب فيها ، ولا يبيحون لأحد منهم أن يمارس التجربة مع احتمال النجاح والفشل في القضايا الكبرى التي لا تحتمل مثل هذه التجارب ، ولذلك مرنوا على الجدية ، وكسبوا انتصاراتهم عن جدارة .

فاسراع العلاء بن الحضرمي بالغارة على بلاد الفرس[٤٦] ، دون علم الدولة[٤٧] يعطي انطباعا حسنا بالحماس والرغبة في التضحية من أجل قضية الدين واهله ولكنه في الوقت نفسه يعطي انطباعا سيئا بأنه كان يعمل بدوافع من نفسه تجاه قضية كبرى تقع مسئوليتها على الدولة قبله ، وقد تكون دوافعه لهذا العمل طيبة ومفهومة تمنحه العطف والمودة، ولكنها مع ذلك توحي بالغموض وعدم الانضباط والاستقلالية المعيبة، والخروج على حدود المسئولية التنظيمية المتاحة، وكأنه كان يعطي لنفسه فوق ما كان ممنوحا له، فليس من المقبول ان يتصرف قواد الدولة بعيدا عنها، او ان يهملوا الاعتراف بوجودها.

ولو انتصر العلاء في محاولته تلك لأصبح مسئولا أمام رئيس الدولة ايضا ، وقد تكون المخالفات الطارئة بسبب رؤية مباشرة أثناء المعارك الدائرة مقبولة أو مفهومة[٤٨] اما ان يعلن أحد القواد حربا على الاعداء من جانبه فهذا شيء غير مقبول دائما .

فلا معنى اذن للتعاطف الطيب مع هذا القائد الشجاع لأن أمور الحرب هكذا يعرفها الناس طول الزمن .

لقد أبعد العلاء بن الحضرمي نفسه بتسرعه عن صفوف القواد الكبار في عصره وأسقط اسمه من قوائم ذوي الكفاءات من اخوانه ، وليس ذلك بسبب فشله ، أو حرج موقفه ، وانما لمخالفته أصول النظم القيادية السائدة عند جميع الامم .

***

وربما دفع العلاء لهذا التصرف علاقات غير صحية سادت بين العرب والفرس خلال فترات طويلة من الزمن ، فلقد عرف الكثير من محاولات التعامل بين العرب والفرس وعرف الكثير من الصلات التى كانت تقوى وتضعف تبعا لتطور الاحداث وحاجة الطرفين ، وذلك مع ادراك الحقائق الثابتة حول اختلاف الوطن وتباعد القومية ، فقد أقام الفرس بأوطانهم دولة كانت في مراحل تطورها منافسا قويا لدولة عالمية أخرى ، وكانت لقوتها تجور على جيرانها ، وتفرض عليهم الخضوع والتبعية .

وحاول العرب بدورهم ان يقيموا في أوطانهم دولة تجمع شتاتهم وتوحد كلمتهم ، فعرفت لهم محاولة ناجحة بجنوب بلاد العراق ، اذ استطاعت دولة المناذرة بتلك المنطقة العربية ان تستقطب الجماعات العربية وان تؤدي دورها في خدمتها ، غير انها لم تستطع الحياة في بلادها كما أرادتها بسبب قربها من سطوة الفرس الاقوياء ، ولقد حاولت هذه الدولة ان تبني صلات مباشرة مع كثير من العرب في المناطق الاخرى وعرف لها نفوذ في البحرين وما حولها ، وعرفها شعراء العرب وأشادوا

بذكرها ، غير ان جيرانها وقفوا أمامها لتوجيه جهودها لصالحهم فكانت تحرس متاجرهم وتؤمن مواصلاتهم ، وتراقب خطوط الدفاع عنهم ، وتخفر مواقعهم وتبعد عنهم أذى الراغبين في السطو عليهم وكأن العلاقات بين هذين الطرفين المتجاورين كانت قائمة على حساب الضعيف منهما ، كما هي عادة الحياة والناس عبر الزمن ، واستمرت دولة الفرس تستعين بحراسة العرب لتجارتها ، وتواجه اعداءها بمن يعطل تقدمهم ، ومن يعطي لها الانذار السريع قبل حدوث المفاجأة .

فلم يكن التعامل بالمثل اذن معروفا بين الامتين ، فأى خطأ كان يقوم به العرب كانوا يقابلون بسببه بالامتهان أو الابادة ، وأي فراغ يعرف في مناطقهم القريبة تزرع فيها العناصر الموالية لتكون من مظاهر التبعية ، أو من وسائل القول بها عند الحاجة ، وأينما وجد الفرس لجيرانهم العرب قوة حاولوا توجيهها لخدمتهم أو تقابل عند الرفض بما ينهي دورها ويقضي عليها ، والكثافات البشرية المتجمعة في منطقة أو أخرى يمكن معالجتها بالتهجير من مكان لآخر ، دون النظر الى الارتباط بالوطن أو ممارسة وسائل العيش المتاحة في البيئة .

وفي مقابل ذلك عرف العرب طريقهم للثورة على هذه المظالم من وقت لآخر ، فكانوا يندفعون بالجرأة والمغامرة لتحقيق غاياتهم العاجلة[٤٩] ، ولقد حدث حتى في الزمن البعيد ان اضطرب النظام في دولة الملك سابور الثاني سنة ٣٠٩م ، فأغار العرب من سواحل الخليج على بلاد الفرس ومارسوا فيها وسائل العنف المعهودة بين الطرفين[٥٠] ، ثم جاء دورهم بعد ذلك أمام دولة الفرس القوية بعد تماسكها ، فقاد هذا الملك نفسه غارات كاسحة على بلاد العرب القريبة ، ومنها مناطق في البحرين وما يجاورها ، وقتل من العرب من مكنته منهم وسائل الموت ، أو نهاية الأجل ، حتى وصل به الظلم الى غايته[٥٢] .

ولقد حدثت غارات كثيرة متبادلة بين بلاد العرب وبلاد الفرس ، وكان لطرف منها نظام وجيش ودولة ، ولم يكن للطرف الآخر غير الشعور المشترك بحب الحياة ، والايمان بقيمة الحرية ، والتعاون لدفع الظلم ، ولم يكن هناك ما يشبه الرضا أو القبول بالتبعية ، ولم تكن هناك كذلك محاولات من جانب الاقوياء لكسب القلوب المستضعفة بالوسائل المرضية ، وفي أوقات الضعف في جانب العرب كان الفرس يفرضون عليهم حكاما تغلب عليهم روح العداء والكراهية[٥٣] ، وفي النهاية غيروا طريقة الحكم برجل من خارج السلالة أو برجل غير ناشىء في البيئة الى بعض العرب المشهورين من ذوي النفوذ والكفاءة ، وغلب هذا الاتجاه حتى صار سياسة ثابتة واتجاها معروفا .

واذا عاشت دولة العرب في جنوب العراق مع الولاء للفرس ، فقد كان ذلك نوعا من الفهم الصحيح لدور القوة في العلاقات بين الامم ، فلم يكن بوسع هذه الدولة ان تعرف الحياة بدون هذا الولاء المؤسي لانها كانت تشارك الفرس في مواجهة عسكرية لجبهة اخرى ، واذا لم يكن من صالح العرب ان يقحموا انفسهم في الخصومات السائدة بين دولتين كبيرتين فان هذه الخصومات فرضت على من لا خيار له في قبولها أو رفضها وربما فرضها كذلك وضع بلاد العرب عند مناطق الصراع بين هاتين القوتين فلم يكن اذن هذا الاتجاه سياسة مقبولة ، وانما كان أمرا لازما لا يمكن رفضه .

***

وجاء الاسلام فغير ميزان القوة لصالح العرب ، واعاد للمنطقة عروبتها الصريحة

ومكن للسيادة العربية في مناطق البحرين وفي بلاد الفرس معها ، وأصبح من مفاخر العرب بعد انتصارهم على الفرس والروم انهم انهوا قصة الصراع الدائر على الحدود المشتركة بينهما ، فأصبحت تلك الحدود تابعة لسلطة واحدة لاول مرة في التاريخ[٥٤] .

البحرين في عهد الراشدين :

ثم استمرت البحرين بعد رحيل قائدها العلاء بن الحضرمي تسهم بجهد ملحوظ في النشاط العسكري الذى عرفه المسلمون خلال عهدهم الأول ، ولم تعرف بها معارضات قوية ضد أحد الخلفاء الراشدين ، في وقت الخصومات المعروفة ، ولم تتضح كذلك أية رقابة محمومة لواحد من هؤلاء الخلفاء ، كما حدث الكثير من ذلك في مناطق اسلامية أخرى ، منها العراق ومصر ، ومن بين أهل المدينة أنفسهم ، وكأن الدلائل الكاشفة عن وضوح ما عرف بعد ذلك بالمذهبية الدينية أو الانقسامات السياسية لم تكن قوية في هذه المنطقة العربية ، ولعل جميع مواطنيها كانوا يوالون الخلفاء الراشدين واحدا بعد صاحبه ، ولعل كل الناس هناك أو جلهم كانوا تحت راية هؤلاء الخلفاء طوال الوقت ، ولقد عرف ان اتجاه الناس وميولهم في هذه المنطقة كانت في صالح الخليفة الرابع الامام على بن ابي طالب حتى بعد أن عارضته عناصر أخرى من بلاد الشام وغيرها ، ولم يكن الشعب في البحرين يظاهر التأييد لهذا الخليفة وحده ، وانما كان هناك معه كذلك ولاة أقوياء لهم نفوذهم في البيئة ، وعرف منهم ابان بن سعيد بن العاص الثقفي ، وعمرو بن أم سلمة ، ومعبد بن العباس بن عبدالمطلب ، وزعماء آخرون وافقوا على رأي الخليفة ، وحاربوا معه وأخلصوا في التضحية من أجله وعرف الكثير عن دور قبيلة عبدالقيس ، وعناصر أخرى من ربيعه في الحروب الاهلية التى شهدها عهد الخلفاء الراشدين عند نهايته ، فقد كان لعبدالقيس عدد وافر من الفرسان شاركوا في هذه الحرب[٥٥] ، وكان الخليفة يعرب عن امتنانه للمحاربين معه من الجماعات القادمة من البحرين ، وكان يمنحهم ثقته وثناءه ودعواته .

ومع ذلك قد لا يمكن القول بأن مناطق البحرين كلها كانت مغلقة لصالح قضية الامام على وحده ، فقد كانت هناك عناصر معارضة ، تقف في الاتجاه الآخر ، وترى حول هذه القضية رأيا يخالف ما كان سائدا بين الجماعات الكثيرة المؤيدة .

فاذا حاربت عبدالقيس - وكانت تمثل العناصر العربية النشيطة في البحرين لفترات من الزمن[٥٦] - في صفوف الخليفة الرابع في تلك الحروب المؤسية فانما كان ذلك بدوافع الفهم الغالب على الناس ، وهو ان هذا الخليفة كان دائما مع الحق ، وكان الحق معه ، فالحماس له اذن كان بدافع الثقة فيه ، وباسم النظام والرغبة في الاستقرار ، وباسم الحق والقانون ، وليس لأسباب عاطفية طارئة ، أو لرغبات شخصية عارضة ، وكان الكثيرون يرون دورهم في خدمة النظام السائد ، وفي حفظ الدولة القائمة ، وفي سلامة الأمة الموحدة .

لقد أيدت اذن مناطق البحرين سلطة الدولة القائمة أيام الخلفاء الراشدين ، ورغبت في الاستقرار ، وتعاونت مع الحكام في حرب المعارضين ، وكان هذا الميل قويا وواضحا ، حتى لقد طبع المنطقة بما يكشف عن اتجاه واضح الى جانب دون آخر ، وشاع بين الناس أن ميول المواطنين في البحرين كانت مع الخليفة الرابع وحده وان الكثيرين منهم يتبعون مذهبا يدور حوله ، أو يتأثرون بأمور تتعلق بوضعه كسيد متميز

بين رفاقه ، أو كصاحب حق ينبغي ان يكون في مكانه ، وقوى هذا الفهم وذاع عن أكثر المواطنين في البحرين ، وهو أمر وضع المنطقة في دوائر الشكوك والاتهامات أمام الحكام القادمين على الطريق بعد عهد الخلفاء الراشدين ، وجعل المخالفين لوجهة نظر الخليفة يتعرضون لهم بوسائل العنف بعد وفاته ، ويفترضون فيهم جبهة معارضة ينبغي الحذر منها ، والشك فيها[٥٧] .

ثم سيطر هذا الفهم وتأصل في عقول بعض القادة من بني أمية ، فكانوا يسيئون الظن بالقاطنين في البحرين ، ويتعاملون معهم بما يناسب هذا الظن في أحوال كثيرة وكأنما خلقت جبهة معارضة يغلب عليها الافتعال أكثر من الواقعية ، وفي وقت كان فيه الكثيرون في البحرين غير راغبين في الوقوف مع الطرف المعارض لهؤلاء الحكام وعرفت أوقات كثيرة لم يتحقق فيها الامل في لقاء الطرفين عند رأي مشترك ، واستمرت الدولة الاموية عند رأيها ، فكانت تواجه السكان بما يفرضه عليها سوء الظن أو ما تدعو اليه الحاجة من اثبات الوجود بوسائل العنف ، واستمر المواطنون عاجزين عن اللقاء بالحكام عند منتصف الطريق ، ولعل ذلك يفسر ما يعرف من التجاء عناصر المعارضة الى هذه المناطق من وقت لآخر ، فلقد استفاد المعارضون للنظم السياسية في دولة المسلمين آنذاك من شيوع روح التسامح ، واتساع أفق الفكر ، وضمان الحياة لكل الناس في البحرين .

ولم يكن سكان هذه البلاد يؤيدون كل الاتجاهات ، أو يميلون مع كل الميول أو يحاربون مع أصحاب كل المذاهب ، أو تتنوع أهواؤهم وعواطفهم ، وانما كانت بلادهم بعيدة عن المدى القريب لسلطة الدولة ، وكانوا يفسحون للآخرين معهم مكانا في بلادهم ، وان اختلفت الآراء وتعددت المذاهب[٥٨] .

الخوارج في البحرين :

يشير لجوء الثوار في أوقات مختلفة لمناطق البحرين الى محاولة استغلال بعدها عن العواصم السياسية التى كانت تتجه بكليتها اما الى سواحل البحر الابيض الشرقية ، واما الى مطلع الشمس في خراسان وما يجاورها ، وكان هنا وهناك جماعات نشيطة تجد فرصتها في العمل بالسياسة تحت قيادة زعامات عربية لها مكانتها وكفاءتها .

أما البحرين فقد كان مواطنوها يقيمون على أوضاع ظلت ثابتة طوال الوقت وكانوا يمثلون الجماعات الآسفة لعدم الحصول على نصيب وافر من حركة التغيير بعد قيام الدولة ، وبعد انتصاراتها التاريخية المعروفة ، وكأن بلادهم تنوسيت قصدا وسط الزحام والصخب ، ولم تأخذ دورها بين الانصار ذوي الرغبات والطموحات .

وبقيت مناطق الخليج العربي تعيش حياتها وتمارس نشاطها ، وتواجه ظروفها في محيطها وبيئتها ، فوجد فيها الخارجون على النظم السياسية ، فرصتهم من أجل البعد عن سطوة هذه النظم ، ومن أجل الاستقلال المعاشي دون الحاجة لاستجلاب وسائل الحياة من الخصوم السياسيين .

ولم تكن هذه المناطق تدفع أحدا للبعد عنها ، لا بسبب الحاجات الملحة ، ولا بسبب الخوف من شيء مفاجيء .

***

وأيا كانت صحة الروايات الواردة عن نشأة الخوارج في التاريخ الاسلامي[٥٩] ، فان هذه الطائفة المسرفة في الغضب على كل النظم من حولها مارست دور الجماعات المستبسلة في القتال أمام خصومها ، وكانت

تدور حول نفسها ، مع الاصرار على رأيها المخالف طوال الوقت .

ثم كانت تتجمع وتفترق من داخلها بسبب آرائها حول القضايا الدينية ، واستقر بها الرأي في النهاية الى ان تؤدي دورها المعارض في المناطق التى تصعب الاقامة فيها ، أو في المناطق البعيدة عن سلطة الدولة .

وكانت البحرين واحدة من مراكز التجمعات الخارجية في أوقات كثيرة ، فعرف بها الخوارج من وقت لآخر ، وكانوا جماعات ثورية حاولت تلوين الاحداث بالمنطقة أو صنعها ، ولعلها وجدت هناك بعض التأييد والمناصرة ، وقد لا يكون القصد عند مؤيدي الخوارج بالبحرين ان يجتمعوا معهم عند فهم مقبول حول العقيدة ، بقدر ما كان الهدف منح التأييد لهذه الجماعات الرافضة كنوع من الاحتجاج على انهيار الحياة الاقتصادية في بلادهم ، أو نقول ان الانتصار للخوارج في البحرين كان يبدو أحيانا لونا من الوان الحماس لزعامات قوية تنتسب لبعض العصبيات القوية في المنطقة .

ولقد اشتدت ثورات الخوارج أيام الخلافات المحمومة على السلطة بين المطالبن بالخلافة[٦٠] الاسلامية ، فذهبت جماعات منهم الى البصرة يقودها نافع بن الازرق ، ثم انتقلت الى الاهواز سنة ٦٤هـ ، وكان هذا الزعيم الخارجي يتبنى مبادىء ثورية تكشف عن هول الغضب في نفسه على مخالفيه فكان يبيح لنفسه ولانصاره كل ما كان لهؤلاء الخصوم ، حتى حق الحياة والموت ، وكأنه كان يتحدى الدنيا بجماعات قليلة من مؤيديه مما دفع بعض أنصاره الى الخروج عليه ، فعارضه منهم من قبل الحياة مع الناس بالتقية وعرف هؤلاء لأنفسهم زعيما أخر هو نجدة بن عامر الحنفي ، فلجأ نجدة مع جماعته الى اليمامة حيث كانت هناك عصبيات قبلية تؤيده دون الاهتمام بوجهات نظره الدينية وكانت هناك كذلك جماعات كثيرة غاضبة على الدولة لأسباب مختلفة .

وكثر أنصار نجدة بن عامر باليمامة ، فأصبحوا ثلاثة آلاف[٦١] ، يرى كل منهم ضرورة الالتزام بطاعته ، فأخذ يهاجم مناطق البحرين المجاورة سنة ٦٧هـ ، بعد ان وجد بها فرصته بسبب انقسام القبائل بها على نفسها[٦٢] ، فانتصر في القطيف واتسعت سلطته حولها .

وبعد ذلك ألح بالحرب على مناطق البحرين المتبقية ، ولم يعطل تقدمه محاولات عاجزة بذلها الكثيرون من البحرين رغبة في الاستقلال بداخلها ، وكذلك من أجل البعد عن الخصومات المؤدية لغضب الدولة الأموية .

وبعد نجاح نجدة بن عامر في الحرب بالبحرين سنة ٦٨هـ [٦٣] ، اختلف عليه رجاله وقتلوه سنة ٧٢هـ ، وجاءوا بزعيم غيره[٦٤] ، فنقل الزعيم الجديد مركز نشاطه الى مناطق البحرين ذاتها ، وشغل نفسه بالحروب ضد قوات الدولة ، فانتصر في بعضها ثم انهزم أمام جيوش الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان سنة ٧٤هـ .

ومع ذلك لم تعن هذه الهزيمة نهاية النشاط الخارجي بالبحرين ، اذ قام بدورهم فيها قبائل عبدالقيس الثائرة لسنوات كثيرة ، فلقد حاولت هذه القبائل معارضة الحكام الأمويين باسم الخوارج[٦٥] ، وكانت تنقل نشاطها العسكري الى مدينة البصرة حيث تجد فيها تأييدا من قبائل عبدالقيس المهاجرة اليها .

لقد كانت العناصر المعارضة باسم الخوارج في البحرين ترى ضرورة رفع الصوت بالاحتجاج على سيادة الدولة الاموية ، بعد ان فقدت بلادها اهميتها

التجارية ، وبعد ان انتقل النشاط الاقتصادي الى مناطق أخرى ، وبعد ان أصبحت البصرة قاعدة عسكرية لحركات الفتوح الاسلامية في الشرق .

القرامطة في البحرين :

قد تكون الحركات الثورية التى حاولت اتخاذ البحرين مركزا ثابتا لنشاطها المعارض متشابهة من حيث رغبتها في اثبات وجودها بالعنف والصرامة أمام الدولة القائمة .

وكلها كانت ترى بتلك المناطق الكثير مما يسهم في تواجدها ويساعد على استمرارها ، ولعل من ذلك ما كان هناك من طوائف كادحة كانت متواجدة داخل المجتمعات في هذه البلاد وما يجاورها . ولا تفتر كتب التاريخ عن الاشارة الى وجود جماعات كثيرة كانت تعانى قسوة الحياة وبؤسها في جنوب بلاد العراق ، قريبا من البحرين التى نحاول التعرف على شيء من تاريخها .

فكانت فى هذه الجماعات الفرصة السانحة للاستثارة بواسطة الثوار القادمين من خارج الساحة البحرينية أو المنبعثين من داخلها ، لأنها كانت شبه مسخرة فى أعمال شاقة ، أو كانت تقوم بجهود مرهقة لا يقبلها غيرها ، ولا يقدم عليها غير المضطر لها ، ثم لم تكن في الوقت نفسه تنال أجرا كافيا عليها أو ربما لم تكن تنال شيئا في مقابل أدائها .

ولقد وفدت غالبية هذه الجماعات باختيارها من بلاد الهند[٦٦] أو من شرق افريقية ، أو من مواطن أخرى مجهولة ، ولما لم تكن تستطيع الحياة فى مواطنها قبلت الحياة الجديدة مع قساوتها وبؤسها . ثم كان بعضها الآخر مجلوبا بوسائل العصر من بلاده من أجل الحاجة اليه ، فقد كان القصد أن تملأ هذه العناصر الفراغ الذي تركته الجماعات العربية المشاركة في النشاط العسكرى الدائر فى عهد بنى أمية ، وبعد انتصارها وجدت فرصتها في بلاد أخرى جديدة ، فلم يرجع أكثرها الى مواطنه الأولى ، وانما استقر بأهله في المناطق المفتوحة ، واندمج في الحياة هناك ، وصار له وجود متميز بها ، حتى أصبحت الجاليات العربية تمثل مراكز الثقل السياسى والاجتماعى في كثير من أماكن اقامتها ، فكان هناك وجود للعرب في خراسان البعيدة[٦٧] وفي غيرها من الأقطار التى فتحها القادمون من جنوبى العراق وشرق الجزيرة العربية .

وأصبح معروفا أن الجماعات العربية المهاجرة تركت فراغا ملحوظا في مواطنها الأولى ، وكان أهم المناطق التى عرفت فيها هذه الظاهرة الاجتماعية بلاد العراق الجنوبية والمناطق القريبة منها .

وكانت هناك رغبة عند بعض الولاة في العراق في أن يحطموا اتجاهات المنطقة الى معارضة الدولة الأموية ، فكانوا يوجهون الكثير من أهلها للفتوحات[٦٨] في أواسط آسيا ، أو يحاولون ابعاد الناس عنها بوسائل أخرى خوفا من التعطل الداعى الى النظرة فى السياسة ، وعرف كذلك أن بعضهم كان يرغب في الجهاد حبا فيه ، من أجل ثوابه ، أو من أجل مكاسبه ، أو للأمرين معا ، وكان بعضهم الآخر يريد الجهاد من أجل البعد عن التورط في الخصومات الدائرة بين الدولة والعناصر المعارضة لها ، وعرف عن بعضهم أيضا أنه كان يبعد قسرا عن هذه المناطق لتهدأ عواصف الفتن ، ولتطول فترات الاستقرار .

ولهذه الأسباب وغيرها ، وخلال هذه الفترة وما بعدها عرفت بلاد العراق الجنوبية ، وعرفت مناطق البحرين معها حركات ثورية عنيفة ، قاد بعضها الخوارج

المستبسلون في القتال حتى الموت ، أو الراغبون في الحرب طول الوقت ، وكانوا جماعات فدائية قليلة ضاعت أمامها معالم الرؤية الواضحة للحياة الاسلامية كما يريدها الاسلام ، فكانت تقف على حافة الخطر أمام أعدائها ، وكانت تلتزم دائما بفهمها الخاص بشئون الدين وما يتصل به . ولم يكن مهما عندها بعد ذلك شيء آخر[٦٩] .

وبعد أن انتهى دور الأمويين القيادى في دنيا السياسة في بلاد المسلمين وبعد أن انهزم حزبهم أمام العناصر العاملة فى صفوف العباسيين بخراسان وغيرها جاءت دولة بنى العباس واستقرت سلطتها على أرض العراق بمناطق المعارضة القديمة فتكاثرت عليها العناصر التى أيدتها أو أسهمت بنصيب في خدمتها ، وامتلأت بلاد العراق بكثافة سكانية غير معهودة ، من العرب وغيرهم ومثل غير العرب بها عناصر طموحة أسرفت في تقدير جهدها عند الاسهام في اقامة هذه الدولة ، ولذلك حاولت أن تأخذ ما تستطيع من مغانم النصر ، وان يكون لها شيء من السلطة والقيادة[٧٠] .

وبعد أن تضخمت المشكلات أمام أصحاب القيادة في تلك الدولة ، ولا سيما بعد أن تكاثر جيشهم من الأتراك القادمين من أواسط آسيا ، لم يصبح هناك قبول ثابت لسلطة بعينها ، وتاهت معالم الأمور بعد أن ضعف العباسيون مع الزمن وجاء عصر الأتراك فلعبوا دور أصحاب القيادة العليا بالدولة دون أن تكون لهم وحدة أو زعامة أو اتجاه حضاري ، فكان الولاء لهم بدوافع الخوف والمجاملة ، لا بدوافع الثقة ، والتسليم بالكفاءة ، وملأوا الدنيا فسادا بمنازعات عقيمة .

ولقد عرفت فى هذا الوقت حركات متطرفة ومحاولات ثورية عاصفة في مناطق البحرين وغيرها ، وكان لهذا التطرف أسبابه ودوافعه ، لأن الدعاة له ما كانوا يستطيعون جمع الناس حولهم بدون الاثارة القوية والوعود الحالمة[٧١] ، فلقد نجح الزنج[٧٢] وبعدهم القرامطة في تكوين جيوش شبه نظامية هددوا بها كل السلطات المعروفة في عالمهم ، وكان نجاح القرامطة واضحا ومثيرا للدهشة لأنهم نادوا بأفكار يتعاطف معها الكثيرون في المنطقة وليس من المهم الآن أن نقول انهم كانوا مع الحق أو على الباطل ، وانما المهم أن نقول انهم وجدوا فرصتهم فى المناطق الخالية من سلطة الدولة ، أو البعيدة عن اشرافها المباشر وكانوا من الوعى بحيث التقوا مع الكثيرين من أصحاب الأهواء المتعارضة فكانوا يتظاهرون بالتدين أمام محبى الأديان وكانوا يعلنون الالحاد أمام الرافضين لها ، ثم كانوا أصحاب مذهب مع من يوالون المذاهب ، وكانوا كذلك مشعوذين مع من تؤثر فيهم الشعوذة[٧٣] ، ثم هم في جميع الأحوال لا يقصدون شيئا مما يعرفه الناس عنهم ، وانما تدور أهدافهم وجهودهم حول ضرورة تواجدهم مع السيادة والقيادة والغلبة ، وليس مهما بعد ذلك أن يكون الطوفان أو لا يكون[٧٤] .

ومن المعروف أن الاتجاهات الثورية قد تركزت قبل ذلك في شمال افريقية اذ كثرت هناك الخصومات بين العرب والبربر وزادت المنازعات حتى أدت الى ظهور حركات انفصالية أقامت دولا مستقلة[٧٥] .

ومثل ذلك حدث في كثير من المواطن الاسلامية لأسباب مختلفة ، ومنها مناطق البحرين العربية لأنها ظلت مع حياتها التقليدية دون طفرات حادة أو تغيرات أساسية ، فكانت تستقطب الراغبين في البعد عن سلطات الدولة وسطوة الحكام .

وجاءت الثورات للبحرين من خارجها ، لأن العوامل الداخلية لم تكن كافية للثورة والاثارة ، ووجدت العناصر الوافدة عليها فرصتها لتخلخل الوجود الشعبى بها ، وللبعد عن سلطة العباسيين في بغداد[٧٦] ، وكانت هناك مع ذلك فرصة مناسبة لاقامة نظام مستقل بعيد عن الدولة ومؤيديها ولا تنقصه في الوقت نفسه امكانية الاتصال بالعالم .

لقد كانت البحرين فى ذلك الوقت شبه نائية مع أهميتها ، تقع على طريق تجاري عالمى ، وفيها مصادر الحياة المطلوبة .

ولما لم تضعها الدولة في مكانها المرغوب فيه من الاهتمام والرعاية وجد فيها الخارجون على النظام[٧٧] مكانا صالحا للاقامة .

***

وبدأت الحركة القرمطية سرية أو غامضة[٧٨] ، وكانت السرية والغموض من الاساليب المتبعة عند مبتدعى الانقلابات السياسية في عالم المسلمين وغيرهم[٧٩] أو نقول : ان ذلك عرف عن كثير من الحركات الجديدة في العالم كله منذ القدم .

ثم أخذت هذه الحركة طريقها بالعنف وسط الزحام بعد أن استقطبت الكثير ممن أيدوها ، أو ممن ساروا معها الى المجهول بغير دراية ، وبعد أن أدركت مقدار ضعف الدولة العباسية ، ومدى الضياع الذي وصلت اليه ، وكان من دلائل هذا الضياع أن بعض وحدات الجيش العباسى كانت تتعاطف مع القرامطة ضد الدولة .

ولقد تصرف قواد هذه الحركة في البداية كما يفعل قطاع الطرق عادة ، فكانوا يغيرون على بعض المدن أو القوافل التجارية ، فلم يفطن العباسيون لخطورتهم ، وحسبوهم جماعة من العابثين بالأمن ، لا تلبث أن تخبو نارهم ، وأن ينتهى دورهم ، ولم يحدث أن ربط العباسيون بين تصرفات هؤلاء الثوار في الأماكن التى عرفوا بها ، مثل العراق والبحرين والشام واليمن ، حتى بعد أن ذاعت شهرتهم في هذه المواطن .

وكأنما أصيب العباسيون بالغباء السياسى ، أو فقدوا حاسة الادراك بسبب عجزهم أو بسبب خضوعهم لسلطات أجنبية لا تفهم هذه العوارض ولا تهتم بها[٨٠] .

ثم وقف القرامطة على الطرف المضاد للتفكير السائد في عصرهم وطعنوا في كل ما يعرفه الناس[٨١] ، وكانت لهم قوة سخروها للتعبير عن سخطهم ورغبتهم في الانتقام ، ولذلك خافهم الكثيرون ، واستعدوا عليهم الدولة ، ولكن هذه الدولة كانت فى حال قريبة من الموت ، ففشلت أمامهم وخشيت بأسهم ، وكانوا يستفيدون من اشاعة الخوف منهم ، لأنه كان احدى وسائلهم للنصر بدون تضحية .

وعاش القرامطة في مجتمعات مغلقة مع افكار حبيسة ، وميول غامضة لا روابط بينهم وبين من حولهم ، ولا يعرف الكثيرون عنهم الا ما يريدونهم أن يعرفوه ، فأشاع الخائفون منهم أمورا لا تدرك حقيقتها ولا يستطاع فهمها بعضها غريب غير معهود وبعضها شاذ ومرفوض .

وأسرف خصومهم في الطعن عليهم ، لأنهم بدورهم كانوا يسرفون في التعامل معهم بالعنف والقسوة . وسار كل فريق في طريقه ، من أسره القرامطة استعبدوه وأذلوه ، أو أذاقوه طعم الموت وقد يزيدون على الموت ما لا يعرفه الناس من تمثيل وتشويه ، ومن أخذوه من الأطفال فرضوا عليه الرضا بما يشينه ويؤذيه وأما نساء الأعداء فكانت لهن قصص مروية فقد تضيع معهن القيم البشرية والكرامات الانسانية ، وقد يكون غير ذلك حسب الهوى والرغبة ، وليس مهما بعد ذلك أن يعرف[٨٢]

أحد والده أو لا يعرفه لأن الجميع كانوا ينتسبون للجماعة القرمطية ، وكانوا مسئولين في مستقبل حياتهم عن مصالحها .

مجتمع غريب نافر ، يحاصر نفسه بالنفور من غيره ، ويرفض التعاون مع المخالفين له ، ويسعى للتسلط بالظلم والامتهان .

ومثل ذلك كان يفعل المخالفون للقرامطة على الجانب الآخر ، وكانوا يحاصرون أنفسهم بالخوف منهم ، ويتسلط عليهم العجز عن مقاومتهم ، ويسرفون في اتهامهم بالخروج عن المعهود من سلوك البشر[٨٣] .

وكأنما تاهت الحقيقة بين جماعات متعادية ، وأطراف متصارعة ، أو كأنما كان الرأى عند القرامطة أن ليس هناك ما هو مرفوض باسم الدين وما هو مفروض باسم الدين كذلك ، وكل ما هو معروف للناس يخضع لوجهات النظر أو للقابلية الشخصية الا سلامة الجماعة وسلامة مبادئها الداعية للكفر بما حولها .

فعلى الفرد من القرامطة أن يحقق أهدافه وأن يشبع حاجاته ، وعليه أن يعيش مع رفاقه مع الاعتراف لهم بحقوق متساوية ، وأما الجماعة القرمطية فتتعاون فيما بينها لضمان مصالح أفرادها ، وللاستجابة لمطالبهم ، ولا تعرف للآخرين من غيرها حقا معها الا أن يكونوا عند ارادتها في حالتى الغضب والرضا . ما كان القرامطة اذن جماعات مثالية[٨٤] وانما كانوا جماعات واقعية ، تؤمن بحق الفرد والجماعة من داخلها ، وتمارس الحرية بجميع مظاهرها ، سواء الراقية منها والكالحة في وقت واحد .

لم يعرف القرامطة الشيوعية المطلقة[٨٥] ولا الملكية الأنانية ولا الاحتكارات المستغلة، لاباحية مشاعة، ولا تشديدا على تحريمها في الوقت ذاته ، فقد يمارسها ذوو الرغبة فيها ، أو من يجدون السبيل اليها ، وقد لا يمارسها الكثيرون ولا يرضون بها ، وعلى الجميع أن يعيشوا حياتهم مع الرضا بالمتاح فيها .

مجتمع منطلق أو شارد ، يسعى نحو أهداف غير واضحة ، فيه دارسون لهم علم ودراية[٨٦] وفيه جاهلون لهم اندفاعات فاسدة ، وفيه متعبدون يتركون وشأنهم وفيه ملحدون لا يؤمنون بشيء ، وفيه غير هؤلاء كثيرون لا تعرف أحوالهم ، وليس للدولة بعد ذلك رأى بالنفى أو الايجاب حول هذا السلوك أو غيره ، اذا لم تكن تلك الدولة تقف أمام الدراسة[٨٧] للتأمل والفهم والاستفادة أو أمام العبادة للممارسة أو التشجيع أو الرفض ، وانما كانت تتجه بجهدها نحو الأمن والأمان والاستعداد لمواجهة الاخطار واستلاب المغانم من الأعداء ، وكأنما لم تكن تتبنى نظاما يخدم الدين ويرعى شئونه ، ولم تكن كذلك تسعى لهدم الدين والهجوم عليه ، فهى لا تبنى المساجد[٨٨] ولا تشارك في بنائها ، ولا تنصح ببنائها ، ولا تعترض على تهديمها ، ولكنها مع ذلك لا تعادى الراغبين فيها أو العاملين من أجلها .

لم يكن عند القرامطة فيما يبدو التزام حول الدين ، فقد يترك المتعبدون مع عبادتهم ، وقد يعفى الراغبون من قيود العبادات كذلك ، وهم فى الحالين لا يعدمون أن يجدوا لأنفسهم تعليلا يناسب أذواقهم وتقبله عقولهم ، ثم هم يبيحون النهب لجماعتهم ولا يعارضون التعدى على حرمات الغير .

ويقولون ان السلطة في الاسلام توقيفية ، ويشيعون أنهم يعملون لخدمة قيادة سرية تبحث عن حقها الضائع فى دنيا المسلمين ويكسبون بذلك حماس الجماهير ، ولكنهم مع ذلك يخرجون على هذه القيادة ، ويرفضون طاعتها ، بل ويحاربونها بزعم

خروجها عن الاستقامة ، أو بعدها عن الصواب .

واذا كان الدين يعنى الخضوع لله والخوف منه ، وأداء العبادات ، ومراقبة الضمير وحسن السير والسلوك ، والتعاطف البشري ، ورعاية حقوق الأقرباء[٨٩] والالتزام بالقيم ، والتحلى بمكارم الأخلاق[٩٠] فهذه كلها أمور لا تعنى بها الدولة ، ولم تكن تقف عندها ، وانما كانت حريصة على الوفاء بحاجات الفرد والجماعة ، ورفض كل ما يأتى من خارج هذه الجماعة والاستعداد لقهر الأعداء في الحروب .

ليس هناك اذن عمل لما بعد الموت ، والجهد كله لما يخدم الحياة الدنيا كما كانوا يفهمونها . ولم يكن رئيس الجماعة عندهم أقرب من غيره لله ، ولا أحرص الناس على الوفاء بحقه ، فقضايا الدين كانت مهزوزة عند الكثيرين منهم ، وهى عند الزعامات ـ قبا غيرها ـ فى دوائر الشك والانكار وليس رئيس الجماعة اقربها لصاحب السلطة المستور[٩١] ، وليس أشدها حرصا على تحقيق غايات بعيدة الرؤية عند العامة ، وانما هو أعظمها جرأة على الأعداء ، وأكفؤها بطولة في الحرب ، وأكثرها حيازة لشروط القيادة ، وأقواها أنصارا بين الطائفة ، وذلك رغم انه يشيع طول الوقت أنه موكل من صاحب الدولة ، وانه يحظى بالرضا من سلطة عليا ، وأن اعماله من أجلها ، وحياته لصالحها .

هو بين جماعته شخص جسور ، يلتزم الحق المتعارف عليه ، ويتعاطف مع الجميع ويعدل فى الخصومات ويعرف حق الرفاق ، وينصح بما فيه خير الجماعة[٩٢] . تقضى حاجة الفقير عند القرامطة ، ورغبة العاجز مستجابة ، وخدمات الدولة لكل الرفاق لا يظلم أحد شيئا ، لا يدفع العاجزون ضريبة ، وتقضى الدولة ديون الغارمين ولا ينبغى لأحد أن يغش أو يحتكر ، ويلتزم الكل بأداء الواجبات .

تعرض لحوم الحيوانات فى الاسواق للناس ، على أن توضع رأس الذبيحة وجلدها أمام الراغبين فى الشراء منها ، حتى لا يخدع انسان في شيء لا يريده ، وليس هناك بعد ذلك شيء آخر[٩٣] ، فلا يقال لشخص كل من هذا اللحم أو غيره ، ولا يقال لآخر لا تأكل منه لأى سبب يكون ، وانما توجد اللحوم المباحة والمحرمة في الدين لا تفرض على أحد ، ولا تمنع من أحد .

وساد المنطق المبيح لكل شيء دون الزام به أو تنفير منه فعلى المرء أن يأخذ من الشيء اذا رغب فيه ، او اذا وجد فرصته اليه ، وله ان يترك ما لا يريده بدافع من ميوله ، فليس هناك تشريع بالاباحة أو التحريم ، كل شيء مباح اذا أراده الناس برغبتهم ، وليس هناك حرام الا ما يعطل وجود الدولة أو يضعف تماسك الجماعة .

سئل أحد القرامطة عما اذا كانوا يبيحون النساء على الشيوع ، فأنكر ذلك ورفض الاعتراف بوجوده ، ولعله كان صادقا في رفضه وانكاره ، لأنه لم يكن يعلم حدوث مثل هذا الشيء في طائفته ولم يشارك فيه فى حياته ، ثم هو لا يناسب ذوقه ، ولا يرى أنه يناسب الأذواق السوية عند غيره ، وقد يدرك أنه مرفوض فى ذوق سائله ، وكأنه بذلك لا يكشف عن سلوك الجماعة ، ولا يجيب برأيها ، لأنه يعيش حياته مترفعا عن هذا السلوك الفاسد ، ويترك للآخرين حياتهم الخاصة[٩٤] .

وسئل آخر هل كنتم تبيحون الزواج بالمحارم ؟ فقال ان الأغبياء هم الذين يحرمون أنفسهم من متع شاركوا فى وجودها ومن جمال أسهموا فى رعايته وأما الأذكياء

مثله فلا يرون فى ذلك حرجا أو غضاضة وربما كان عندهم أولى بالقبول من غيره ، وهو كذلك صادق في التعبير عن رأيه ، لأن الزواج بالمحارم كان يوافق ذوقه ويناسب مزاجه ، ليس للدولة رأى فى هذا أو ذاك ، فهي لا ترفض شيئا ولا تفرضه .

لقد ماج مجتمع القرامطة بأمور غريبة أو شاذة ، وقد تكون متضاربة أو متناقضة ، فكان هناك من كان يعرف عنه أنه من أتقى الناس ، وكان هناك أيضا من كان يرى من أسرع الناس الى الباطل[٩٥] ، لقد ذكر المتحاملون عليهم أنهم كانوا بغير دين ، وأن رؤساءهم أسقطوا عنهم العبادات كلها ، ومع ذلك لم يكن هناك من كان يعاقب على الوفاء بحق الله عليه ، لأن الجميع عاشوا مع الحرية فيما يخصهم ، وليس للدولة معهم الا أن تدافع عما يخصها ، والا أن يستجاب لها .

وربما كان مجتمع القرامطة مكشوفا من داخله ، او لعله كان يعيش مع الصراحة فى علاقاته الاجتماعية ، أو كان يعيش مع الحرية فى تناوله الشخصى لأنه كان يرفض القيود ويمقتها .

وصحيح أن القيود قد تكون ضرورية ولازمة ، ولا بد منها في أحيان كثيرة ، وان الحرية لا ينبغى أن تكون هكذا مطلقة كما عرفت داخل المجتمعات القرمطية .

ولكن مثل هذا النمط من السلوك تعيش معه المجتمعات السوية ، او المجتمعات الآمنة التي تعرف الحياة الخالية من الأخطار والأزمات .

وليس المراد هنا الدفاع عن القرامطة المعرضين للنقد طول الوقت ، وليس المراد كذلك الطعن فيهم ، اذ من المهم أن نقدم عنهم صورة تقريبية تكون المسئولية فيها على المؤرخين قبل غيرهم ، ثم نحاول تفسيرها بالموضوعية الممكنة ، وليس من الضرورى بعد ذلك تقييم هذه الصورة ، أو الحكم عليها برأى او بآخر .

فاذا كان قصد الزعامة القرمطية في دولة القرامطة بالبحرين أن تضع الجماعات التابعة لها عند الهدف المقصود من وجودها ، فقد استجاب لهم الكثيرون واسترخصوا الحياة معهم ، وكسبوا انتصارات هائلة باسمهم ، فأصبحوا بهذا التأييد قوة كبيرة في عالمهم .

لقد وجد الكثيرون من مؤيديهم اقتراب الأمل في تحقيق رغباتهم بالتحلل من القيود الدينية وغيرها ، فناصروهم ، وشاركوهم حياتهم ، وهكذا يكون سلوك الغالبية فى مثل هذه المجتمعات المتخلفة ، لأنها قد ترى في التوجيه نحو الخير قيودا ، وترى فى القيود سجنا ، وقد ترى فى النصيحة وسيلة مرفوضة لأنها قد تعنى الذل والتسلط وهى تريد أن تنطلق مع وجودها المتحرر وأن تمارس حياتها بكل أبعادها .

واذا كانت النظم الاجتماعية المتطورة توجه الناس بقيود تفرضها ، أو بنصائح تعلنها فانما يكون ذلك لأنها تريد الحياة الأرقى ، وتسعي نحو الأحسن[٩٦] ، ولا يعنى الحسن عادة الا رفعة الحياة ورقيها ، ومحاولة القرب من غاياتها المثلى ، وأما القرامطة فلم يشغلوا انفسهم بترقية الحياة أو بالسعى نحو غايات مثلى ، وانما كان يشغلهم تكوين جماعة محاربة تستجيب للنداء عند الحاجة[٩٧] .

وهذا يعنى وجود أوساط متخلفة ، تشغلها حاجاتها الدنيا ، ولا تصبر على الحرمان منها ، فاذا وفت الدولة بأداء هذه الحاجات ، وهيأتها للراغبين فيها كان ذلك يعنى تعاطفها مع مواطنيها ، ويعنى ايضا استجابة مواطنيها لرغابتها فى المقابل وكأنما ساد بين الطرفين ما يشبه تبادل المصالح عن طريق الأخذ والعطاء ، دون النظر في قيمة

هذه المصالح ومستواها ، وبعد ذلك تسهل القيادة ، وتتحقق الاستجابة ويعيش الناس حياة تناسب تطلعاتهم أو ميولهم ، فالحب أو التقدير في مثل هذه الحال يأتى عن طريق الاشباع ، وليس عن طريق الادراك والوعى ، أما فهم المواقف الصعبة واحترام الاتجاهات الهادفة ، والرغبة في التضافر لاشاعة القيم الرفيعة ، والسير مع التوعية المفيدة والتعاون من أجل المثل العليا ، فهذه أهداف تسعي لتحقيقها المجتمعات السوية .

فقد قيل أن زعيم القرامطة أعفى الناس من التكاليف الدينية فبلغ حماسهم للتخلي عنها أنهم لم يسألوه ان كان له الحق في ذلك أم لا ، ولم يسألوا أنفسهم لماذا يضعونه فى مقام الآلهة أو فى منزلة المشرعين[٩٨] ، لقد وجد الراغبون في التحلل من القيود الدينية حاجتهم فى هذا الاعفاء ، فأسرعوا الى قبوله ، ونفهم ان زعيم القرامطة لم يكن يدرك أنه مسئول عن حماية الدين وأركانه ، او لم يكن يعترف بهذه المسئولية ، او لعله لم يكن يريدها لأنه لم يكن يعرف للدين في ذاته قيمة ، واذا قيل انه أباح لأتباعه النهب والتعدى على الحرمات فما كان هناك من يرفض هذه الاباحة أو يعترض عليها[٩٩] .

لقد حاول هذا المجتمع المريض أن يبتعد عن رقابة الضمير في حالات كثيرة ، أو فى تعامله مع غيره خاصة ، أو نقول أنه كان يفتقد الضمير فى علاقاته بخصومه ، وكانت قيادته غوغائية ، وجدت فرصتها في زمانها ، وأدركت حقيقة الحال من حولها ، فقادت جماعات غافلة نحو انتصارات ثبتت كيانها وحسبت في صالحها ، وكانت الاستجابة لها حماسية وقوية .

***

لقد كتب من لم يزوروا القرامطة في البحرين عنهم شيئا كثيرا ، تحت تأثير الشعور بالكراهية ، واستجابة لروايات متناقلة ، وبعض هذه الروايات كانت تصوغها الأغراض وتلونها وجهات النظر المعادية ، وحاول الكثيرون أن يشيعوا الفساد عن هذه الطائفة وأن يقنعوا الناس ببعدها عن الدين كله .

وجاء آخرون فأنكروا هذه الدعوى بحجة أن نظاما ما لا يستطيع البقاء بين الناس طول هذا الزمن مع هذا الفساد[١٠٠] .

وقال من زاروا القرامطة[١٠١] ، وحاولوا النظر اليهم بنوع من الموضوعية ، أنهم كانوا يعرفون النظام كما كانوا يفهمونه ، ولم يكن مهما عندهم أن يقبله غيرهم أو يرفضه ، وقالوا أنهم كانوا يعرفون الحرية والاخلاص للزعامة ، والتعاون على الحياة ، وكفالة أصحاب الحاجة ، وأن مجتمعهم كان مثل غيره له محاسنه ومثالبه وليس فيه ما يثير الأسى الا قلة المساجد[١٠٢] ، او انعدامها في مكان او آخر والا عرض اللحوم النجسة في الأسواق العامة[١٠٣] .

وهذا يعنى أن خصوم القرامطة ، ومن عاشوا مع الخوف بسببهم ، أو من عاشوا خارج بيئتهم يتوقعون الشر منهم كانوا يسرفون في تقدير مواقفهم ، وكانوا يلونون هذه المواقف حسب أهوائهم .

ثم كان القرامطة من جانبهم يريدون أن يشاع عنهم أنهم يعيشون مع اليأس ، وأنهم مفعمون بالسخط على غيرهم ، وأنهم يؤمنون بأنفسهم ويكفرون بمن سواهم ، وكان هذا من أهدافهم ومما يكشف عنه سلوكهم ، فشاع الخوف منهم ، وحلت الفوضى فى المناطق المجاورة لهم وكان الخوف منهم يساعد على انتصارهم ويدنيهم من أهدافهم[١٠٤] .

لقد كان القرامطة قوة كبرى في عالمهم ، ولا نعني بالقوة مظاهرها المعروفة مثل كثرة العدد ، وجودة العدد ، وانما نعني بها

حيازة الوسائل المؤدية للانتصار ومنها الدعاية الكفيلة بتحطيم معنويات الخصم ، واللجوء الى الحرب النفسية والرغبة في تحقيق الغايات بوسائلها والدفاع عن الأهداف بالتضحية ، ومحاولة اثبات الوجود بالقوة عند الضرورة .

فاذا كان من الممكن مقارنتهم بغيرهم من الحكام في عصرهم مالت المعادلة الى جانبهم ، وأكدت ضرورة تفوقهم .

***

وبعد فهذه محاولة لعلها صحيحة أو مقبولة لتفسير الروايات الغريبة التى تعرضها كتب التاريخ أو أكثرها حول قضية القرامطة فى البحرين وكلها تلح فى الطعن عليهم ، وتشترك في الخصومة ضدهم[١٠٥] ، وكأنها روايات ثابتة أو مؤكدة ولا يمكن معارضتها أو الشك فيها .

***

وكان على الثوار في البحرين مهما اختلفت مشاربهم ومذاهبهم وأهواؤهم أن يبحثوا لأنفسهم عن تبرير مقبول يكسبون به الشرعية الدينية لوجهات نظرهم أمام الجماهير المسلمة ، ولذلك التمسوا الوسائل الممكنة والدعاوى المناسبة لهذه الجماهير ، فكان الخوارج يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس ، وأنهم اشتروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله[١٠٦] ، وانهم يعرفون الاسلام كما لم يعرفه غيرهم ، وكان الزنج والقرامطة يعلنون ولاءهم الصريح لآل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليس مهما بعد ذلك أن تختلف نسبة الصدق أو الزيف لهذا الولاء عند هؤلاء وأولئك في فترات من الزمن .

وكان على الثوار كذلك أن يبحثوا لأنفسهم عن بيئة اجتماعية ملائمة ، وحدث ان كانت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ملائمة لظهور هذه الثورات في مناطق البحرين أكثر من غيرها في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى .

فبعد الفساد السياسى ، والضعف العسكرى ، والانهيار الاقتصادى في دولة العباسيين بالعراق فى ذلك التاريخ عاد البدو العرب في كثير من بلاد العرب الى حياتهم الاولى ، بمعنى رفض القيود ، والتحرر من ضغط السلطة ، والخوض فى الخصومات القبلية ، ودفعهم لذلك فقدانهم بعض مصادر رزقهم الثابتة ، فبعد أن كانوا يرون أنفسهم جنودا توضع أسماؤهم في قوائم العطاء بالدولة ، ويحصلون على رواتب ثابتة حسب درجتهم فى خدمتها ، أسقطتهم هذه الدولة من حسابها ، ودفعتهم للبحث عن مقومات حياتهم الاقتصادية بوسائلهم ، ولذلك وجد فيهم القرامطة وغيرهم فرصة صالحة فاستثاروهم وأفعموا أنفسهم بالغضب والرغبة فى الانتقام وأسقطوا أثر الاسلام الضعيف من قلوبهم ، ولم يبقوا على شىء لصالح الدين وقيادة المسلمين عندهم .

وكانت الأوضاع الاقتصادية كلها غير مرضية ، أو لعلها كانت مؤسية ، اذ كان يقوم بأمور الزراعة في أماكن كثيرة من لا يحسنون[١٠٧] القيام عليها ، واحتكرت التجارة أيد قليلة محترفة ، وانتشر بالمنطقة فكر دينى يتبع المذهب المعارض للعباسيين ، وكان هذا الفكر يتبنى قضية العدل الاجتماعى ، وينمى تيارا عقليا يخاطب الجماهير الغاضبة بما يناسبها ، او بما يزيد في ثورتها ، وتولى قيادة هذا الفكر الثورى جماعة الاسماعيلية الشهيرة ، وحاول هؤلاء جهدهم استقطاب العناصر الساخطة في كل مكان .

ومن الصحيح أنه لم يكن مهما عند أى من هذه الجماعات أن تكون صادقة فيما تدعو اليه أو لا تكون ، وانما كان المهم أن

تحظى بالنجاح في ايقاظ الحماس بين الجماهير المعارضة أو اشعال نار الغضب في نفوسها .

وعرف عن القرامطة ـ ولهم صلة وشيجة بالحركة الاسماعيلية التي عمت مساحات واسعة من بلاد المسلمين آنذاك[١٠٨] ، أنهم كانوا يعلنون عن ولائهم للفاطميين في شمال افريقية وفي مصر بعد ذلك ، الا أن ميولهم كانت تتذبذب مع العباسيين أحيانا كثيرة ، وفقا للمصلحة ، وحفاظا على الدولة .

ويشير التاريخ الى أنهم لم يترددوا في الهجوم على أراضي الدولتين العباسية والفاطمية اذا سنحت لهم الفرصة ، ثم كانوا في الوقت نفسه يطعنون في كل النظم والقيادات والأديان ، وقيل أنهم كانوا يرون كل المصلحين حتى الانبياء يمثلون زعامات خادعة تحاول استعباد الناس بدعاوى لم يقم دليل على صحتها .

***

لم يكن هناك اذن ولاء معروف عند القرامطة لأى من العباسيين أو الفاطميين غير ان العباسيين كانوا في حال ضعف معروفة ، وعند مجال الرؤية المباشرة ، لذلك وقعوا تحت النقد وتعرضوا للتجنى فأوسعهم الأعداء ذما ، وبدا كأن القرامطة كانوا يعملون لخدمة أغراض الفاطميين خاصة ، مع أن الحقيقة كانت في جانب آخر ، وهي أن ولاء القرامطة أنفسهم كان فوق الشبهات ، وفوق كل ولاء يمكن تصوره لأى جماعة أو أى نظام ، ولعل ايمانهم بأى من الطرفين المتنازعين[١٠٩] ، في بلاد المسلمين فى ذلك الوقت لم يكن فى مستوى واحد وأن ميلهم كان الى جانب الفاطميين أقرب[١١٠] ، وخلال مراحل طويلة من فترات حكمهم ، الا أن اعترافهم بنوع من التبعية لأى من الجانبين لم يكن يعنى نكران الذات أو تجاهل المصالح ، وأما التبعية المطلقة لأى منهما فكانت غير واردة ، ولعلها تكون مرفوضة طول الوقت ، وان أمكن التغنى بها أو الاعلان عنها لتحقيق غاية عاجلة أو لشىء تأتى به الأيام .

ومن الصحيح أن قيام الدولة الفاطمية كان يعنى نوعا من الاستجابة لرغبات الباحثين عن ترضية العواطف تجاه آل الرسول ، ولكن القرامطة وان حاولوا السير فى هذا الاتجاه استجابة لبعض الميول والرغبات السائدة في مناطق الخليج العربى الا أنهم كزعماء أو قادة ، أو غير هؤلاء من أعداد كثيرة كان يمثلها الاعراب المناصرون لهم ، ما كان لهذا الولاء عندهم قيمة حقيقية في أوقات كثيرة .

لقد كان ضروريا لمن أعلنوا الدعوة القرمطية في البداية من أن يظهروا نوعا من الارتباط بالاتجاه الغالب في المحيط العام ، وفي البيئة الخاصة بالبحرين ـ وكانت الدعوة الاسماعيلية قد فاقت جميع التيارات المذهبية المعروفة في بلاد المسلمين في ذلك الوقت ـ لأن ذلك كان يخدم أهدافهم ، ويحقق مصالحهم ، وبعد أن علا شأنهم ، ونجحوا في تثبيت وجودهم لم يقفوا طويلا أمام التزاماتهم السابقة ، ولم يروا من واجبهم مواصلة التعاون مع من أعلنوا الوفاء لقضيتهم .

ثم أصبح واضحا ان كل النظم السياسية اتجهت الى الاعتدال مع مواطنيها ، ولم تسرف فى التعامل مع خصومها ، ومعنى ذلك أن البدايات الحماسية عند هؤلاء وأولئك انتهت الى الحال الوسطي ، لأن ذلك كان ضرورة ملحة ، كما كانت البداية الحماسية ضرورة ملحة أيضا .

لقد عجز العباسيون عن الصمود أمام القرامطة ، فتعرضوا لغاراتهم العاتية ولكثير من مظالمهم ، بل وكانوا يشترون رضاهم

بالمال لفترات تطول أو تقصر ولما لم يستطيعوا الوصول معهم الى حل مقبول حاولوا تجربة طرق أخرى كان منها تنمية الخصومات الداخلية بينهم ، وضرب بعضهم ببعض[١١١] .

وأما الفاطميون فكان من صالحهم أن يشاع حولهم أنهم مؤيدون من انصار أقوياء في البحرين وفى غيرها من بلاد العرب[١١٢] ، وكانوا من جانبهم يسهمون فى اذاعة هذا التأييد ، وذلك لافهام الآخرين أن الكثيرين يعملون من أجل قضية عادلة ، هى قضية آل الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولكن الود المعلن بين القرامطة والفاطميين لم يكن له مكان فى قلوبهم الا عندما كان كل منهما في مكانه من مناطق النفوذ ، بمصر والبحرين ، وعندما تقارب الطرفان وتقابلا على أرض الشام لم يحتمل احدهما الآخر ، أو لم يفسح أحدهما مكانا لصاحبه فازدادت بينهما الخصومات واشتعلت نيران العداء[١١٣] ، وكأن السيفين لا يجتمعان في قراب واحد كما يقول المثل عند العرب .

وفي الحرب قتل القرامطة واحدا من أشهر قادة الفاطميين[١١٤] ، في بلاد الشام ، فغضب لذلك المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٦٢ هـ ، وكان من مظاهر غضبه رسالة مسهبة[١١٥] صب فيها جام سخطه على القرامطة ، وهددهم بالطرد من صفوف الأولياء ، وبالنصر عند اللقاء ، فكان رد القرامطة نوعا من الاستهانة بالرسالة وصاحبها[١١٦] ولم يبق الا أن يقيم كل منهما في مكانه بالبحرين وشمال افريقية .

***

لقد اشتهر أول زعيم للقرامطة في البحرين باسم أبى سعيد الجنابي[١١٧] ، وكانت عنده قابليات عسكرية هائلة[١١٨] ، فاتخذ لنفسه دار هجرة[١١٩] ، في منطقة الاحساء سماها المؤمنية ، وأخذ يغير منها على جنوبى العراق وعلى طرق القوافل في بلاد العرب وانتصر على العباسيين سنة ٢٨٩ هـ وأباد لهم جيشا كبيرا أسرف في التنكيل به وامتهانه[١٢٠] ، ثم اغتيل أبو سعيد هذا لدوافع ثأرية غير معروفة او بتحريض من الفاطميين لأسباب مجهولة سنة ٣٠١ هـ ، فجاء بعده إبنه أبو طاهر سليمان وكان ـ كما تقول الروايات عنه ـ شيطانا من البشر ، شغل وقته وجماعته بالغارات المستمرة على ممتلكات العباسيين ، وعلى طرق القوافل في الصحراء ، وعلى القادمين الى مكة بغرض الحج أو العمرة ، وفى ذروة اغتراره بنفسه دخل بجيشه مكة سنة ٣١٧ هـ ، فكان يعتدى على حياة الناس ، وعلى حرمات الدين ، وأخذ يمارس في الحرم هوايته في الكشف عن احساساته المعارضة لاتجاهات المؤمنين ، فكان يستهين بمناسك الحج ، ويصف الطائفين حول الكعبة بالضلال والحيوانية[١٢١] ، وينكر أن يكون لمثل هذه العبادة معنى أو غاية ، أو أن يكون لله بيت في الارض .

ولم تكن دوافعه لمثل هذا التعدى الا الاعلان الصارخ عن الفراغ في السلطة فى بلاد المسلمين ومحاولة التقليل من هيبة الحكام العباسيين .

ثم ازدادت تصرفاته خطورة عندما انتزع الحجر الأسود من مكانه ، بدعوى أنه يمثل نوعا من الوثنية البائدة ، ولم يعبأ بالعواطف المتعلقة به ، ولا بتوسلات الملحين عليه في طلب تركه ، ولا يعرف ما اذا كان القرامطة قاموا بهذه المحاولة بدوافع شخصية أو بتوجيه من الخارج[١٢٢] ، والمعروف أن أبا طاهر هذا رجع الى مكانه في البحرين بالغنائم الكثيرة والاسرى المنهكين[١٢٣] ، واستمر الحجر المقدس بعيدا عن مكانه مدة تزيد على عشرين سنة ،

ثم رد الى موضعه سنة ٣٣٩ هـ بعد اتفاق البويهيين ذوى النفوذ في بغداد[١٢٤] ، مع القرامطة حول أمور كانت تثير الخلافات بينهم[١٢٥] ، أو بعد أن أمرهم الفاطميون بذلك ، وكان للفاطميين هدف غير معلن من اختفاء هذا الحجر في البداية ، ومن ارجاعه في ذلك الوقت أيضا ، لأنهم ـ كما يقال ـ قصدوا أن تهتز ثقة الناس فى العباسيين ، وأن يدركوا أن الفاطميين وحدهم كانوا القادرين على حماية مثل هذه المقدسات[١٢٦] .

ولا شك أن خصوم العباسيين لم يترددوا في ركوب الصعب ، وعمل كل ما يدنيهم من أهدافهم ، ولم يكن عندهم ما يفوق رغبتهم في امتلاك الثروة[١٢٧] ، ثم كانت تثيرهم عداوات قاتلة .

واذا عجب الكثيرون من أن أحدا لم يغضب بما يناسب تعدى القرامطة على حرمات الدين في مكة فان هذا العجب يفقد معناه اذا قيل ان المجتمعات عاشت حينئذ حياة مضطربة ، وانها كانت مقسمة الى قطاعات متنافرة لأن القرامطة أسهموا فى زيادة حدة الصراع بين المذاهب الدينية ، ونموا الشعور بالانعزالية ، وأفسدوا العلاقة بين المواطنين والدولة ، فكان هناك كثيرون يبحثون عن الأمن بالبعد عن الصراعات المذهبية ، وكثيرون يجدون الراحة في التخفى والسلبية .

وأما العباسيون فقد استمر عجزهم فسكتوا على المكروه ، وخضعوا لما يخضع له المستضعفون[١٢٨] .

لقد قامت دولة القرامطة في البحرين سنة ٢٨٦ هـ/ ٩٠٠م وواجهت الأحداث حتى سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م ، وكان رئيسها يؤدى دور الزعيم الأول فى صف جماعة من الأقران يعرفون بالسادة ، ويتبع هؤلاء السادة جماعة من المستشارين يعرفون بالوزراء وللجماعتين بعد ذلك أنصار يسمون العقدانية ، وهؤلاء كانوا يشكلون ما يشبه مجلس الشيوخ في دولتهم ، ثم كان هناك بعد ذلك درجات أخرى يوضع فيها الناس حسب قربهم لا حسب كفاءتهم .

واستمر شريان الحياة يجرى فى أوصال تلك الدولة طول هذه المدة لتوفر دخولها المالية[١٢٩] . حتى جاءت النهاية في غير صالحها فانهزمت أمام الفاطميين فى معارك شبه حاسمة سنة ٣٦٨ هـ ، وبعد الهزيمة اختلف القرامطة على قائدهم الحسن الأعصم[١٣٠] ، وانصرفت عنهم طوائف من جيشهم ، وتجرأت عليهم قيادات ناشئة في مناطق البحرين نفسها ، وكان منها القائد عبدالله بن على العيونى مؤسس الدولة العيونية بالاحساء[١٣١] ، فقد انتصر هذا القائد على القرامطة سنة ٣٧٨ هـ ، وخرجت عليهم كذلك أجزاء واسعة من البحرين منها امارة بنى الزجاج في جزيرة أوال[١٣٢] ، بقيادة أبى البهلول العوام بن محمد بن يوسف الزجاج فقد أسهمت هذه الامارة بجهدها في اضعافهم وقربت نهايتهم بعد أن ابعدتهم عن الاتصال بالعالم ، وخربت بعض موانيهم .

الهوامش

(١) لقد استمر هكذا فهم التاريخ لفترات طويلة من الزمن ، او نقول ان تاريخ العرب لم يتحرر من هذا الفهم الا بمحاولات تبدو عاجزة حتى اليوم .

(٢) كان القرشيون ادعياء في زعمهم التمسك بالوثنية العربية ، ولعلهم كانوا ابعد الناس عن الايمان بها .

(٣) كانت الحياة البدوية تغلب على مساحات واسعة من بلاد العرب الشمالية ، ولم يخف ضغطها الا عن مناطق قليلة نجحت في اقامة نظم سياسية متطورة .

(٤) يلاحظ ذلك بوضوح اليوم في دولة البحرين المعاصرة .

(٥) لا نقول ان سكان البحرين تعرفوا على الاسلام وقبلوه بعد الدراسة والنظر والمقارنات ولكننا نقول ان هذا الدين بدا قويا ومشرقا ومفيدا منذ لقائهم به في المراحل الاولى .

(٦) اتضح انتصار الاسلام بعد صلح الحديبية سنة ٦ هـ لأن شروط هذا الصلح كلها كانت تكشف عن ضعف خصومه .

(٧) بعث العلاء الحضرمي للرسول مالا كثيرا لم ير مثله قبله او بعده ، وجاء ابو هريرة للخليفة عمر بن الخطاب من البحرين بمال كثير قدرته الرواية بخمسمائة الف ، وكان الخليفة نفسه يتهم واليه بعد ان اعلمه به بالاندفاع في الشطط ، او بعدم الادراك .

(٨) لا يؤمن بالأديان عن دراسة الا بعض الراغبين في قبولها ولا تشير اعدادهم عبر الزمن الى وجود ظاهرة عامة .

(٩) عرف من اصنام العرب المشهورة في البحرين : ذو اللبا ، وكان بالمشقر ، وتعبده عبد القيس واوال وهو صنم لبكر وتغلب ابني وائل ، وسميت جزيرة البحرين باسمه وعرف كذلك هناك صنم باسم المحرق ، وكلها كانت عند مراحل الانهيار عند ظهور الاسلام .

(١٠) وتلك كانت فرصة الاسلام في هذه الاوساط التي لم تؤمن بعقيدة ولم تشغل نفسها بالنظر في الاديان .

(١١) لم يكن النشاط الديني لابراهيم الخليل فعالا او مؤثرا في بلاد العرب ، ثم كان دور ابنه اسماعيل بعده محدودا لم يحرك السكون السائد في عهده .

(١٢) أما الصراعات المعروفة بين الأديان في بلاد اليمن فلم تكن دوافعها كامنة في الخلافات العقائدية وانما كانت بسبب خلافات سياسية ، ومنافسات تجارية وخصومات دولية .

(١٣) ولقد عرضهم هذا التصرف للخطر امام الدولة البيزنطية التي كانت لها وجهات نظر دينية مخالفة .

(١٤) ليس في التاريخ ما يؤكد ان الرسول نفسه استمع لخطبة قس بن ساعدة المشهورة في سوق عكاظ .

(١٥) لم يكن هذا العجز بسبب تسامح المسيحية كما يقال فقد عرف التسامح في الاسلام ايضا وانما كان بسبب السلبية ونعني بها اللجوء للمواعظ والاتكال على الزمن والتعامل بالصفح مع من لا يدركون قيمته .

(١٦) عرف الكثير عن تسامح المسيحيين ولكن هذا التسامح كان محسوبا عليهم في حالات كثيرة كانوا فيها ضعافا لا يملكون القدرة على الانتقام بوسائله .

(١٧) ربما كان المنذر مسيحيا بالاسم فقط ، او ربما كان لا يزال في بداية الطريق الى المسيحية ، وقيل ايضا انه كان مجوسيا او قريبا من المجوسية ـ ليس هناك وضوح حول هذه القضية ـ والمعروف انه قبل الاسلام بعد عرضه عليه ، ولا يفعل ذلك صاحب دين في العادة .

(١٨) ظهرت المجوسية بايران في القرن ٧ ق م ، وكانت ترى ضرورة التفريق بين قوى الخير والشر ، وتحاول نصيحة الناس بالتزام الوسائل المؤدية لسيادة السلام على الارض ومنها : اجادة العمل والاخلاص للجماعة وحب الوطن وزيادة النسل والاعتراف بالطبقية .

(١٩) عرفت هذه الدولة باسم الدولة البيزنطية او دولة الروم او الدولة الرومانية الشرقية وكان لها وجود في المناطق الاوربية والآسيوية عند اتصال اوربا باسيا منذ بداية القرن ٤ م ، ودخلت مع المسلمين في خصومات طويلة فانتزعوا منها اعظم مقاطعاتها الشرقية ثم قضى عليها السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م .

(٢٠) والقصة طويلة ومعقدة حول ثورة المانوية وبعدها المزدكية على المجوسية ديانة الفرس الرسمية .

(٢١) ليس هناك وضوح حول تبعية هذا الحاكم لكل من الفرس والعرب المناذرة ، ولعله كان مواليا للعرب ومدركا لحساسية موقفهم مع الفرس في الوقت نفسه ، وكان هناك بجانبه في البحرين من كان

بمثل المصالح الايرانية واسمه سيبخت مرزبان هجر .

(٢٢) تمثلت جاذبية الاسلام خاصة فى مبادئه وواقعيته . وفى انبعاثه من داخل البيئة وفى دعوته للانعتاق من سلطة رجال الدين كذلك . ثم ان هذه الجاذبية كانت تختلف من مكان الى اخر فمما اثار انتباه الناس للاسلام فى مصر انه ابقى على الارض مع أصحابها ودعا للتسامح الدينى واهتم الايرانيون بالاسلام فى البداية لانه احترم الملكية ونظم الاسرة .

(٢٣) لم يهتم المسيحيون بالتسامح الذى دعوا الناس اليه بعد انتصارهم فى اليمن فاصبحوا يندفعون للانتقام من خصومهم ومن غير خصومهم ايضا فمن المعروف ان فيلا تقدمهم لهدم الكعبة دون ان تكون بينهم وبين أهل مكة خصومة مباشرة .

(٢٤) تقول رواية تاريخية ترد بالحاح فى عدد من المصادر حول البداية الحقيقية لعبادة الأصنام فى بلاد العرب ان سيدا عربيا اسمه عمرو بن لحي الخزاعى نقل حجارة من بلاد الشام الى جزيرة العرب ، وطلب من الناس ان يقلدوا الشاميين فى عبادتها فاستجابوا له واطاعوه ، فاذا كانت أمور العبادة عند العرب بمثل هذه البساطة فلا شك ان الوثنية لم تكن ماخوذة بالجد والاهتمام ، ومما كان يضعف من خطورتها انها لم تكن تفيد شيئا كما لم تكن تطلب من أحد شيئا فى الوقت نفسه .

(٢٥) دخلت المسيحية بلاد العرب فى القرون الاولى من ظهورها ، وجاء الاسلام بعد ستة قرون من ظهور المسيح ، فكانها اخذت فرصتها كاملة بين العرب .

(٢٦) هناك أمور هامة حققت انتصار الاسلام فى كل مكان ومنها : الايجابية والصلاحية والقدوة والمناسبة والكفاءة وتعنى الايجابية المرونة فى التعامل والبعد عن السلبيات ، وتعنى الصلاحية النظم الصالحة لكل الأزمنة والمواطن ، واما القوة فهى حسن السلوك والخضوع للنظام ، واما المناسبة فهى البيئة الصالحة والأوضاع المواتية ، واما الكفاءة فهى ان يكون المرء عند المستوى المطلوب لمهمته .

(٢٧) لا شك أن الحياة سلسلة من رغبات الكثيرين طول الزمن .

(٢٨) قيل ان الأسبذية كانت نوعا من عبادة الخيل فى البحرين ، ولعلها كانت على درجة من عدم التاثير فى البيئة بحيث يمكن التغافل عنها .

(٢٩) كان من ثناء الرسول على اهل البحرين انهم لم يكرهوا على الاسلام ، وانهم خير أهل المشرق وانهم لم ياتوه من أجل المال او بدوافع الطمع .

(٣٠) ظل الجارود بعد اسلامه ثابت العقيدة ، راغبا فى الوفاء بحقها ، فقيل انه استطاع التاثير فى قومه بعد ردتهم وردهم الى الاسلام من جديد ، وانه قاد جيشا للحرب ضد المرتدين فى البحرين .

(٣١) ارتبط اسم العلاء بن الحضرمى بالبحرين لفترات طويلة ، فكان داعيها الى الاسلام ، وكان قائدها الى النصر فى حرب المرتدين ، وكان أحد ولاتها المرغوب فيهم ، وقيل ان اهلها طلبوا من الخليفة ارجاعه اليهم بعد عزله .

(٣٢) يقول المسلمون ان من اعظم مواقف الخلفاء طول التاريخ موقف الخليفة ابى بكر امام المرتدين بعد وفاة الرسول .

(٣٣) هو الجارود بن بشر بن عمرو بن المعلى وكان واحدا من ذوى الكفاءات فى البحرين .

(٣٤) قيل ان بعض الناس عللوا أسباب ردتهم بوفاة الرسول والرسل فى رايهم لا تموت ثم استدرجوا الى الاعتراف بموت الرسل فرجعوا عن مواقفهم ، وفى هذا نوع من السذاجة او الغفلة المعيبة .

(٣٥) يسمى المنذر الغرور ، ويقال انه حكم فى الحيرة بعد عمه الأسود بن المنذر سنة ٦٣٤ م .

(٣٦) ارسل المسلمون المحاصرون للخليفة ابى بكر رسالة منظومة يطلبون منه النجدة العاجلة وفيها نبضات خوف واضحة ولكنها ـ فيما يبدو ـ تكشف عن الاتجاه للمبالغة ، وهو شىء معهود فى الشعر العربى .

(٣٧) لقد أحاط بالمسلمين خطر داهم أثناء حربهم ضد المرتدين من بنى حنيفة باليمامة ومن المعروف انهم هزموا للمجاهدين جيشا بعد الآخر ، وانهم ثبتوا امام جيش خالد بن الوليد لفترات طويلة ، رغم ما عرف عن هذا الجيش من بطولات وتضحيات .

(٣٨) بلغ نصيب الفارس من هذه الغنائم ستة آلاف ، ونصيب الراجل الفين .

(٣٩) اشتهر من زعماء العرب المتنبئين مسيلمة الحنفي والأسود العنسي ، وطليحة الأسدى وسجاح التميمية .

(٤٠) وكانت الدولة نفسها قد اتجهت للحرب ضد الفرس فى اماكن اخرى .

(٤١) يقال ان المنافسة كانت قوية بين سعد بن أبى وقاص والعلاء بن الحضرمي ، وان سعدا كسب بانتصاره فى القادسية مكانة متميزة بين القواد المسلمين ، بينما انزوى العلاء بسبب فشله فى حملته على بلاد الفرس فى الصفوف الخلفية لهؤلاء القواد .

(٤٢) نفهم ان حروب المسلمين لم تكن عشوائية فى يوم من الايام ، وان انتصاراتهم لم تكن من ضربات الحظوظ السعيدة ، وانما كانت نتيجة مفهومة او متوقعة لاوضاع عسكرية جيدة تحسب فى صالحهم .

(٤٣) نحن نقول مثل ذلك عادة بسبب ظروف العجز التي تواجهنا ، وكاننا نلتمس لعجزنا تعليلا مقبولا ، ولكن المسلمين في تلك العصور الزاهية ، ما كانوا يرضون بالحياة مع الفشل ابدا .
(٤٤) كان هذا الخليفة المجاهد يواجه محاولة كبرى يخشى فيها الفشل .
(٤٥) لا يبدو ان الخليفة أمر هذا القائد بعدم الحرب فخالف أمره ، وانما كانت اندفاعة حماسية يغلب عليها حسن النية .
(٤٦) يتعاطف الكثيرون مع العلاء الحضرمي ويلتمسون لخطئه الاعذار ، غير ان هذا التعاطف لم يكن واضحا في قلب الخليفة نحوه ، وكان ذلك من بعض مظاهر قوته القيادية وكفاءته الادارية .
(٤٧) لو امرت الدولة بتلك المحاولة ثم فشل فيها العلاء لحاسبته عند فشله في حينه .
(٤٨) وفي هذه الحال يمكن التجاوز عن المخالفات في حالة النصر وحدها .
(٤٩) لم تكن حرب ذي قار بين العرب والفرس سنة ٦١٣ م بسبب وفاء العرب لقضية الملك اللخمي فقط وانما كانت هناك دوافع اخرى دعت لهذه الحرب الشهيرة ومنها محاولة رفض الظلم والاستعداد للتضحية من اجل الحياة مع الحرية .
(٥٠،٥١) كانت الخصومات في ذلك الوقت تبيح للقوى شئون الضعيف ، كما كان من مفاخر الاقوياء ان يرفضوا الظلم من غيرهم بينما هم يفرضونه على الآخرين من حولهم .
(٥٢) مما قيل عن بعض مظالم هذا الملك انه كان ينزع أكتاف العرب ثم يتركهم للموت مع العذاب .
(٥٣) اشتهر بعض ولاة الفرس في البحرين عند ظهور الاسلام باسم المكعبر لانه كان يقطع أيدي العرب وارجلهم ، وقيل ان قبيلة عربية كبيرة تعرضت في عهده للابادة لمجرد ان بعضها أغار على أموال كانت مرسلة لدولة الفرس من بلاد اليمن .
(٥٤) كان ذلك يعني الأمن للجميع ، ونهاية العداء المتبادل على الجانبين واستقرار القاطنين بتلك المناطق المضطربة ، والاتجاه نحو بناء حضارة مشتركة .
(٥٥) قيل انهم كانوا ثلثمائة فارس ، وهذا عدد كبير اذا كان من قبيلة واحدة .
(٥٦) اشتهر من القبائل العربية في البحرين عند ظهور الاسلام :
أ - عبد القيس وكانت تقيم بمساحات واسعة في البحرين وممن وفد على الرسول من زعمائها عبدالله بن عوف الاشج والجارود العبدي .
ب - جماعات كثيرة من بني وائل ، وكانوا يوالون صنما معروفا بالبحرين سميت باسمه جزيرة البحرين .
جـ - عشائر من بني تميم ومنهم حاكم البحرين المنذر بن ساوى .
د - بعض بني الأزد ، ومن مناطق سكناهم جزيرة أوال ، وتاتي بعد ذلك عناصر اخرى من أصول هندية ومنها الزط او السابجة وغيرهم .
(٥٧) ومن هؤلاء الخوارج المتعصبون لوجهات نظرهم حول أمور الدين وغيرها .
(٥٨) ونقول ايضا : ان هذه المنطقة كانت تهيىء للاجئين اليها وسائل الاتصال بالعالم الخارجي ، ووسائل الفرار امام الأعداء عند الضرورة .
(٥٩) تتعدد الآراء حول هذه النشاة في التاريخ ، ولا نجد حاجة لعرضها ومناقشتها في هذه المناسبة .
(٦٠) نقصد بهم الزبيريين والمروانيين المتحاربين من أجل السلطة بعد وفاة يزيد بن معاوية .
(٦١) قد يعني هذا العدد عند الخوارج قوة كبرى ، اذ كان القليلون منهم يؤدون دور الكثيرين من غيرهم ، وتكثر الروايات حول بسالتهم العسكرية .
(٦٢) كانت هناك خصومات عنيفة في ذلك الوقت بين الأزد وعبد القيس في البحرين فكلما أيدت احداهما جماعة رأت الاخرى معارضتها .
(٦٣) لقد كان موقف الخوارج في البحرين قويا في ذلك حتى استطاعوا تهديد بلاد الحجاز بالمقاطعات الاقتصادية . وقيل انهم حاولوا ذلك ثم تراجعوا عنه استجابة لرجاء عبدالله بن عباس .
(٦٤) هو ابوفديك واسمه عبدالله بن ثعلبة . وكان احد بني قيس بن ثعلبة .
(٦٥) استمرت مقاومة هذه القبائل لسلطة الامويين في البحرين مدة تقرب من عشرين سنة .
(٦٦) عرف بعضها باسم السابجة ، وعرف بعضها الآخر باسم الزط ، وأما العناصر الافريقية فقد اندمجت تحت مسمى واحد ، وهو الزنج أو الأفارقة .
(٦٧) يروى المؤرخون الكثير عن نشاط العرب في خراسان عند قيام الدولة العباسية والمعروف انهم قسموا انفسهم هناك تبعا لأصولهم القبلية ، فكانت هناك عناصر من ربيعة ومن اليمن ، ومن مضر ، ولهم قصة طويلة تتعلق بمنافساتهم الداخلية وبصلاتهم السياسية بالامويين والعباسيين بعدهم .
(٦٨) الزم الحجاج بعض المواطنين في البحرين بحرب الخوارج في جبال ايران ، وكان من بعض اهدافه ان يخلي هذه المنطقة من كثافتها العربية .
(٦٩) كان للخوارج في البحرين قصة طويلة المحنا لبعض معالمها في صفحات سابقة .
(٧٠) من المفهوم الآن ان العناصر التي خدمت العباسين في البداية كانت من العرب والفرس معا ، واذا

كانت الدعاية قد نجحت في الاعلان عن وجود قائد فارسي واحد كانه كان صانع الملوك في عهده . فلقد تأكد من التاريخ وجود عدد كبير من القواد العرب الذين اسهموا بجهدهم معه .

(٧١) من هذه الوعود انهم سوف يرثون الأرض ، وكل ثروة الأغنياء معها .

(٧٢) دخل الزنج البحرين سنة ٢٤٩ هـ ووسعوا بها مناطق نفوذهم في جنوبي العراق ثم هزمهم العباسيون بقيادة الموفق بعد حرب استمرت اربع عشرة سنة . وشاركت البحرين في هزيمتهم الاخيرة في معركة المختارة سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٢ م .

(٧٣) كان القرامطة يعرفون الأحداث الجارية في المناطق البعيدة قبل غيرهم بواسطة الحمام الزاجل ، فكانوا يخبرون الناس بها ، فيعتقد الكثيرون انهم يعلمون الغيب او تتكشف لهم اسرار الدنيا .

(٧٤) حاول القرامطة أن يضموا الى جمعيتهم السرية جماعات كثيرة لها اهواء مختلفة ، فكان من هذه الجماعات من يرون في الأديان قيودا للبشرية . وكان منها المتعصبون ضد الدولة ، والراغبون عن كل ما تمثله من أفكار او قيم .

(٧٥) من الدول التي اسرعت بالاستقلال في المغرب العربي دولة الرستميين الخوارج في تاهرت سنة ١٦٠ هـ ، ودولة الادارسة العلويين في فاس سنة ١٧٢ هـ ، ودولة الأغالبة في العباسية بتونس سنة ١٨٢ هـ .

(٧٦) يقول زعيم القرامطة في رسالته الى الخليفة المعتضد العباسي :
« يا هذا لم تخرق هيبتك ، وتقتل رجالك ... وانما انا رجل في فلاة ... وقد رضيت لنفسي بخشونة العيش .. وانظر فاني ما اغتصبتك بلدا كان في يدك ، ولا ازلت سلطانك عن عمل جليل » .

(٧٧) اتبع القرامطة جماعة كثيرة من البدو العرب ، والأكراد ، والنبط ، والهنود والأفارقة ، وطوائف اخرى من اجناس مجهولة .

(٧٨) لا تعرف البداية الصحيحة لهذه الحركة . فحولها جملة آراء غامضة وغير مفهومة ولعل القضية كلها في حاجة لدراسات متأنية وموضوعية من جديد كي تعرف الحقيقة او بعضها .

(٧٩) ظلت دعوة العباسيين سرية لفترة تقترب من ثمان وعشرين سنة وكانت لها تنظيماتها ومبادئها ومراكزها ودعاتها خلال تلك الفترة .

(٨٠) عرف عن قادة الجيش العباسي الأتراك انهم كانوا رجال حرب فقط ، لا يعرفون السياسة او الدين او شئون المال او غيرها . وقيل ان احدهم شاهد من كانوا يعذبون في قضية خلق القرآن المشهورة في عهد الخليفة المعتصم فقال انه لا يعرف من الدين الا ان هذا الخليفة ابن عم رسول الله .

(٨١) رفض القرامطة الاعتراف بالتفسير السائد لآيات القرآن الكريم ، وقالوا ان تفسير القرآن من اختصاص الامام وحده .

(٨٢) اما نساء القرامطة فكانت حرمتهن مصانة ، وعرف انهم كانوا يدعون للزواج بواحدة فقط .

(٨٣) ومن ذلك تاليه البشر ، والكفر بالدين ، وشيوعية النساء .

(٨٤) عرفت بعض مظاهر المثالية داخل المجتمعات القرمطية ، مثل الأخذ بيد الضعيف ، والعدل بين الناس ، والاستجابة لرأى ذوى الرأى ، والتواضع للرفاق ، واحترام الرؤساء .

(٨٥) عرف القرامطة بعض الملكيات العامة في الأرض وحدها ، فقيل ان ثلاثين الفا كانوا يفلحون الأرض لحساب الدولة .

(٨٦) يقال الكثير عن مؤلفات داعيتهم عبدان ، فكانت تنسب له مؤلفات غيره لشهرته ولقد ضاعت كتبه مع الزمن او بسبب الفتن .

(٨٧) نسب الكثيرون من الدارسين والمتعبدين للقرامطة وهم ليسوا منهم .

(٨٨) يقول رحالة زار جزيرة البحرين انه لم يكن بها زمن القرامطة مسجد واحد .

(٨٩) تروي في التاريخ قصة مؤسية عن اساءة شاب قرمطي لأمه ، وليس معروفا ما اذا كانت هذه القصة تمثل اتجاها عاما شاع بين القرامطة او كانت حالة خاصة ترتبط بظروفها .

(٩٠) وقد تعتبر مثل هذه الأمور ـ في نظر هذه الجماعة ـ من مظاهر الضعف المرفوض .

(٩١) عرف عن حمدان قرمط .. وهو واحد من قادة هذه الجماعة ـ ان اخلاصه للقضية المذهبية كان فوق الشبهات ، ولكنه ـ وحده ـ ينال مثل هذه التزكية .

(٩٢) ينصح أحد رؤساء القرامطة رجاله بالتواضع مع المرءوسين وبالا يكثروا من الزواج خوفا على صحة ابدانهم والا يشربوا الخمر من اجل تحقيق الانضباط .

(٩٣) واصبح دور الدين ملغيا ، وتوجيهاته بدون رعاية .

(٩٤) يبدو أن شيوعية النساء ـ التي يتهم بها القرامطة ـ لم تكن اتجاها عاما يمكن ادراكه والشعور به .

(٩٥) يقول أسير خدم القرامطة ان مخدومه كان يفقد عقله في سكره ، وانه ـ في بعض ثوراته ـ كان يطعن في قادة المسلمين حتى المعروفين منهم بالكفاءة والتقوى ومن بينهم الخلفاء الراشدون انفسهم ، ويقول : انه كان يطلب منه عند صحوه الا يذكر ذلك لأحد .

(٩٦) لم يحاول القرامطة السعي نحو التطور ، بقدر ما انحصرت اهدافهم في الثبات امام العواصف ومقاومة الأعداء من حولهم .